
لغز الموت
مصطفى محمود

مصطفى محمود



١٩٦١

دار الجيل للطباعة
١٤ شارع قصر اللؤلؤة . الفجالة



كل منا يحمل جثته على كتفيه . .

ليس هناك أغرب من الموت . .

انه حادث غريب . .

أن يصبح الشيء . . لا شيء . .

ثياب الحداد . . والسرادق .. والموسيق .. والمباخر . . والفراشون بملابسهم المسرحية.: ونحن نتفرج كأننا نتفرج على رواية ... ولا نصدق ولا أحد يبدو عليه أنه يصدق . .

حتى المشيعين الذين يسيرون خلف الميت لا يفكرون إلا فى المشوار

وأولاد الميت لا يفكرون إلا فى الميراث

والحانوتية لا يفكرون إلا فى حسابهم .

والمقرمون لا يفكرون إلا فى أجورهم . .

وكل واحد يبدو أنه قلق على وقته أو صحته أو فلوسه . .

وكل واحد يتعجل شيئاً يخشى أن يفوته . . شيئاً ليس الموت أبداً .

إن عملية القلق على الموت بالرغم من كل هذا المسرح التأثيرى هى مجرد قلق على الحياة . .

لا أحد يبدو أنه يصدق أو يعبأ بالموت . . حتى الذى يحمل النعش على أكتافه .

الخشبة تغوص فى لحم أكتافه . . وعقله سارح فى اللحظة المقبلة وكيف يعيشها . .

الموت لا يعنى أحداً . وإنما الحياة هى التى تعنى الكل . . .

نكتة !! . . .

من الذى يموت إذن ؟ . .

الميت ؟ . .

وحتى هذا . . لا أحد يدرى مصيره . .

إن الجنازة لا تساوى إلا مقدار الدقائق القليلة التى تعطل فيها المرور وهى تعبر الشارع . .

وهى عطلة تتراكم فيها العربات على الجانبين . . كل عربة تنفخ فى

نفيرها فى قلق . لتؤكد مرة أخرى أنها تستعجل الوصول إلى هدفها . . وأنها لا تفهم . . هذا الشيء الذى إسمه الموت .

ما هو الموت . . وما حقيقته . .

ولماذا يسقط الموت من حسابنا دائماً . حتى حينما نواجهه .

* * *

لأن الموت فى حقيقته حياة

ولأنه لا يحتوى على مفاجأة . .

ولأن الموت يحدث فى داخلنا فى كل لحظة حتى ونحن أحياء . .

كل نقطة لعاب .. وكل دمعة .. وكل قطرة عرق .. فيها خلايا ميتة.. نشيعها إلى الخارج بدون احتفال . .

ملايين الكرات الحمر تولد وتعيش وتموت ...فى دمنا ... دون أن ندرى عنها شيئاً . ومثلها الكريات البيض . . وخلايا اللحم والدهن والكبد والكلة والأمعاء . . كلها خلايا قصيرة العمر تولد وتموت ويولد غيرها ويموت . . وتدفن جثثها فى الغدد . أو تطرد فى الإفرازات فى هدوء وصمت .. دون أن نحس أن شيئا ما قد حدث .

مع كل شهيق وزفير .. يدخل الأكسجين .. مثل البوتاجاز إلى فرن الكبد فيحرق كمية من اللحم ويولد حرارة تطهى لنا لحماً آخر جديداً نضيفه إلى أكتافنا .

هذه الحرارة هى الحياة . .

ولكنها أيضاً احتراق . . الموت فى صميمها . . والهلاك فى طبيعتها .

أين المفاجأة إذن . وكل منا يشبه نعشاً يدب على ساقين..

كل منا يحمل جثته على كتفيه فى كل لحظة ..

حتى الأفكار تولد وتورق وتزدهر فى رؤوسنا ثم تذبل وتسقط .. حتى العواطف . . تشتعل وتتوهج فى قلوبنا ثم تبرد . . حتى الشخصية كلها تحطم شرنقتها مرة بعد أخرى .. وتتحول من شكل .. إلى شكل ..

إننا معنويا نموت وأدبياً نموت وماديا نموت فى كل لحظة .

وأصدق من هذا أن نقول أننا نعيش . ماديا نعيش وأدبياً نعيش ومعنوياً نعيش . . لأنه لا فرق يذكر بين الموت والحياة.. لأن الحياة هى عملية الموت .

لأن الأوراق التى تنبت من فروع الشجرة . . ثم تذبل وتموت وتسقط .. وينبت غيرها .. وغيرها .. هذه العملية الدائبة هى الشجرة ..

لأن الحاضر هو جثة الماضى فى نفس الوقت ..

لأن الحركة هى وجودى فى مكان ما وانعدامى من هذا المكان فى نفس اللحظة . فبهذا وحده أمضى وأتحرك .. وتمضى معى الأشياء ..

لأن الحياة ليست تعادلية كما يقول توفيق الحكيم، ولكنها شد وجذب وصراع بين نقيضين ، ومحاولة عاجزة للتوفيق بينهما فى تراكيب واهية هى فى ذاتها فى حاجة للتوفيق بينها .. مرة .. ومرة ومرات . . بدون نهاية وبدون نجاح أبداً .. وبدون الوصول إلى أى تعادلية . .

الحياة ليست تعادلية بين الموت والوجود ولكنها اضطراب بين الاثنين وصراع يرفع أحدهما مرة ويخفضه مرة أخرى .



الحياة أزمة . . وتوتر . .

ونحن نذوق الموت فى كل لحظة . . ونعيشه . . فلا نضطرب بل على العكس .. نحس بكياناتنا من خلال هذا الموت الذى فى داخلنا ..ونفوز بأنفسنا ، وندركها ، ونستمتع بها ...

ولا نكتفى بهذا . . بل ندخل فى معركة مع مجتمعنا .. وندخل فى موت وحياة من نوع آخر . موت وحياة على نطاق واسع تتصارع فيه مجتمعات ونظم وتراكيب إنسانية كبيرة .

ومن خلال هذا الصراع الأكبر . نحس بأنفسنا أكثر .. وأكثر .. إنها ليست خلايا تولد وتموت فى جسد رجل واحد . ولكنها أيضاً مجموعات بشرية تولد وتموت فى جسم المجتمع كله .

إنها الموت يحدث على مستويات أكبر .

الموت إذن حدث دائب مستمر .. يعترى الإنسان وهو على قدميه ويعترى المجتمعات وهى فى عنفوانها .

وهو فى نسيج الإنسان.. فى جسده . . وفى كل نبضة ينبضها قلبه مهما تدفقت بالصحة والعافية .

وبالموت تكون الحياه .. وتأخذ شكلها الذى نحسه ونحياه . . لأن ما نحسه ونحياه هو المحصلة بين القوتين معا.. الوجود والعدم وهما يتناوبان الإنسان شدا ... وجذباً .

ما السر إذن فى هذه الدهشة التى تصيبنا حينما يقع أحدنا ميتا .

ولماذا يبدو لنا هذا الحدث غريباً . . غير معقول ، غير قابل للتصديق.

ولماذا نقف مشدوهين أمام الحادث نكذب عيوننا . . ونكذب حواسنا . . ونكذب عقلنا . . ثم نمضى . . وقد أسقطنا كل شيء من حسابنا . . وصرفنا النظر . . واعتبرنا ما كان . . واجباً . . ولباقة . . ومجاملة . . أديناها وانتهينا منها .

لماذا لا نحمل هذا الحادث على محمل الجد . .

ولماذا نرتجف من الرعب حينما نفكر فيه . . وتنخلع قلوبنا حينما نصدقه وتضطرب حياتنا حينما ندخله فى حسابنا ونضعه موضع الإعتبار .

السبب أنه الحادث الوحيد المصحوب برؤية مباشرة . . فما يحدث داخلنا من موت لا نراه . . لا نرى كرات الدم وهى تولد وتموت . . لا نرى الخلايا وهى تحترق . . لا نرى صراع الميكروبات وهى تقتلنا ونقتلها . .

وخلايانا لا ترى نفسها وهى تفنى . .

كل ما يحدث فى داخلنا يحدث فى الظلام . . ونحن ننام ملء جفوننا وقلوبنا تدق بانتظام وتنفسنا يتردد فى هدوء .

الموت يسترق الخطى كاللص تحت جنح الليل . . ويمشى على رؤوسنا فتبيض له شعراتنا .. شعرة .. شعرة .. دون أن نحس .. لأن دبيبه وهو يمشى هو دبيب الحياة نفسها . .

إن أوراق الشجرة تتساقط ولكن الشجرة تظل ماثلة للعيان دائمة الخضرة دائمة الازدهار . . تظل هكذا حتى تهب عاصفة تخلعها من جذورها وتلقى بها فى عرض الطريق . .

وحينئذ فقط يبدو منظرها قاتماً يبعث على التشاؤم . . تبدو فروعها معروقة عارية . . وجذورها نخرة . . وأوراقها مصفرة . .

لقد انتهت .. لم تعد شجرة . . أصبحت شيئاً آخر . . أصبحت خشباً

وهذا هو ما يحدث .. حينما نشاهد الإنسان وهو يسقط جثة هامدة

إنه يبدو شيئاً آخر ويبدو الحادث الذى حدث فجأة .. حادثاً غريباً بلا مقدمات . .

لقد انتهى الإنسان كله فجأة . .

ويبدأ العقل فى التساؤل . .

هل انتهى أنا أيضاً كلى فجأة . . كما انتهى ذلك الإنسان . . وكيف ولا شىء فى إحساسى يدل على هذه النهاية أبداً .

كيف يحدث هذا . . وأنا جياش بالرغبة . . ممتلىء بالإرادة .. بل أنا الامتلاء نفسه . .

كيف يتحول الامتلاء إلى فراغ .. وفجوة .

أنا . . أنا ؟ ! . . الذى أحتوى على الدنيا . . كيف أنتهى هكذا وأصبح شيئاً تحتوى عليه الدنيا . .

أنا ؟ . .

إن كلمة . . أنا . . كلمة كهربائية . . إنها كالضوء أرى بها كل شىء . . ولا يستطيع شىء أن يراها . . انها أكبر من أى كلمة أخرى وأكبر من أى حقيقة . . لأن بها تكون الحقائق حقائقاً . .

إنها فوق كل شىء وفوق أنا أيضاً لأنها ترانى وتشعر بى . .

إنها مصدر الإشعاع كله . . وحيث يتمثل لى هذا المنظر المفجع الذى يلقى فيه إنساناً مصرعه . . فإن فوق هذا المنظر أيضاً . . لأنها تراه . . وتطل عليه . . وتطل على هذه الطبيعة من مكان ما . . فوق المكان . . وفوق الطبيعة . . وفوق قوانينها . . وفوق ظواهرها .

أنا أموت ! . .

من أنا . .

ومن هو الذى مات . .

إنه بعض منى . . منظر من ملايين المناظر التى تعبر خاطرى . فكيف أموت أنا أيضاً . .

إن التساؤل مايلبث أن يتحول إلى تمزق فظيع يحطم فيه المنطق نفسه بنفسه . . ويصطدم باستحالات لا حل لها . .

وهكذا تبدأ المشكلة الأزلية . .

لغز الموت . .

إن مصدر اللغز هو هذا الموقف الذى ينتقل فيه العقل من رؤية مباشرة للموت إلى استنتاج مباشر . . عن موته هو أيضاً .. وهو أبو الأشياء . . ونظامها . . وتفسيرها . . ونورها .

ولكنه يعود فيقول :

لا . .

إن الذين يموتون هم الآخرون .

إن التاريخ كله لا يروى قصة واحدة عن موت الـ .. أنا ..

إن الموضوعات تتغير وتتبدل وتولد وتذبل وتموت .. والآخرون يموتون .

.. أما أنا .. هذه الـ أنا .. لاتوجد سابقة واحدة عن موتها .

أنا من مادة أخرى غير كل هذه الموضوعات .. ولهذا أمسك بها وأتناولها وأفهمها .. ولاأستطيع ان امسك بنفسى وأتناولها وأفهمها أنا فوق متناول الجميع .. وفوق متناولى أنا أيضاً .. وفوق متناول القوانين والظواهر ..

هناك حلقة مفقودة ..

وهى تفتح بابا تدخل منه الفلسفة .. ويتسلل منه الفكر .. ولكنه باب ضيق .. ضيق جداً .. يؤدى إلى سراديب اغلبها مغلقة .. ورحلة الفكر فى هذه السراديب مخيفة مزعجة ولكنها تثير الاهتمام ..

وأى شىء يبعث الاهتمام أكثر من الحياة .. والمصير .. ومن أين.. وإلى أين .. وكيف .

عملية تهريب

الحب قصة جميلة . . الموت مؤلفها . .

الحياة حرارة .. واحتراق .. الموت نسيجها .. والهلاك فى صميمها .

أجسادنا تتساقط وهى تمشى .. فى كل لحظة هناك شىء يتساقط منا .. وكلما توهجت حياتنا كلما تآكلت فى نفس الوقت . .

العدم كامن فى الوجـــود . . كامن فى أجسادنا . . كامن فى إحساساتنا ومشاعرنا .

الخوف . الشك .. التردد .. القلق .. الكسل . . التراخى . . اليأس القنوط . . كل هذه علامات سكون فى الشعور . . كلها إحساسات عدمية تفسيرها الوحيد أن هناك فجوة فى تكويننا . . فجوة نراها بعين الشعور فنخاف ونجزع ونقلق .

فجوة نطل عليها من داخلنا وإن كنا لا نراها بعيننا الواعية . . ولا نتذكرها إلا حينما يقال لنا .. فلان مات .

مات .. ؟! مات ازاى ! ده كان لسه سهران معانا امبارح انص الليل .. شيء عجيب ..

ونمصمص شفاهنا .. ثم ننسى كل شيء ونعود إلى حياتنا الآلية .. ولكن عيننا الداخلية تظل مطلة على هذه الفجوة .. وباطننا يظل يرتجف بهذا القلق المبهم ..

الموت بالنسبة لكل منا .. أزمة .. وسؤال .. يبعث على الدهشة والقلق .. والذعر.

ولكنه بالنسبة للكون شيء آخر .

إنه بالنسبة للكون ضرورة وفضيلة .. وخير ..

الموت والحياة حينما ننظر لهما من بعيد .. وهما يعملان فى الكون يظهران وهما يخلقان الواقع .

الموت يبدو مكملا للحياة .. يبدو كالبستانى الذى يقتلع النباتات الفاسدة ويسوى الأرض ويحرثها ليفسح المجال للبذور الصغيرة الرقيقة لتطرح ثمارها .

يبدو كالرسام الذى يمحو بفرشاته خطاً ليثبت على اللوحة خطاً جديداً أفضل منه .

يبدو خالقاً فى ثوب هدام .. فهو يهدم حائط الجسد .. لأن خلف الحائط يوجد ماء الحياة الجارى .

حاول أن تتخيل الدنيا بلاموت .. الدنيا من أيام آدم .. والمخلوقات وهى تتراكم فيها .. ولا تموت .

الناس .. والذباب .. والضفادع .. والحشائش .. والديدان .. وهى تتراكم . . وتتراكم . . وتصعد على أكتاف بعضها البعض . . حتى تسد عين الشمس .

إن الحياة تبدو شيئاً كالاختناق .

إن الكائن الحى يحب نفسه فقط .. ويحب اللحظة الصغيرة التى يعيشها ولهذا يكره الموت .. ولكن الموت يحب كل اللحظات .. ويحب الزمن .. ويحب المستقبل .. ولهذا يتساقط الناس من غرباله كالنشارة ليقوم على أشلائهم ناس آخرون أحسن منهم وهكذا دواليك .

الموت هو عملية المونتاج التى تعمل مقصها فى الشريط الوجودى كله فتقصه إلى عدة لقطات واقعية .. كل منها له عمر محدود ..

والموت يخلق واقع الأشياء الجامدة أيضاً كما يخلق واقع المخلوقات الحية .

الأشياء الجامدة لها نهاية .. والعين تدركها لأن لها نهاية .. نهاية فى الطول والعرض والعمق .. ولو كانت لانهائية فى طولها وعرضها وعمقها لاختفت . . ولأصبحت عالية على الإدراك .. غير موجودة . .

إن التناهى هو الذى يوجدها .

والتناهى هو الموت .

كل ما فى الكون من إنسان وحيوان ونبات وجماد إذن متناه له حدود .. الموت يأكل أطرافه .. ويقص حواشيه .. ويبرزه .. ويوجده ويخلقه فى نفس الوقت .

الموت فضيلة وخير بالنسبة للكون كله لأن به تكون الأشياء موجودة وتكون المخلوقات مضطرمة بالشعور والحياة .

ولكنه شر الرذائل بالنسبة للإنسان الفرد .. بالنسبة لك أنت .. ولى أنا .. لأنه ينفقنا كضرائب إنشاء وتعمير .. ويقدمنا قرابين على مذبح الوجود .

ونحن لا نفهم هذا النوع من القربان . . ولا نستطيع أن نفهمه . . لأنه قربان فظيع .. وتضحية معناها أن نموت ونهلك .

نحن نعيش فى مأساتنا الشخصية . . ونرى الموت كفجوة تفغر فاها تحت أقدامنا فنتشبث بأى شىء نجده حولنا .. نتشبث بأمهاتنا .. وبزوجاتنا .. بأطفالنا .. بأصدقائنا .

نشعر بالحب والشوق والحنين إلى يد تمسك بها ونتشبث بها ونحتمى من الجرف الذى ينهار تحتنا .

ونبصر بالمرأة تمد لنا يديها وقلبها وجسدها .. وتتراقص مثل كوبرى عائم على نهر الفناء . . فنهرع إليها محاولين النجاة .. ونشعر بجنون اللذة والسرور والفرح ونحن بين ذراعيها . . نشعر بأننا نولد من جديد . . ونبعث .. ونهرب من المصير . .

ونموت . . ولكن بعد أن نكون قد زرعنا صورتنا فى جسدها .. وقمنا بتهريب جزء من وجودنا عبر هذا الكوبرى الجميل من اللحم والدم . . الذى مدته لنا مع ابتسامتها .

إن الحب كله قصة جميلة . . مؤلفها هو الموت نفسه . . وليس الحب فقط . بل كل العواطف والنزوات والمخاوف والآمال وشطحات الخيال والفكر والفن والأخلاق . . كل هذه القيم العظيمة تدين للموت بوجودها .



اعطنى أى مثل أخلاق . . وأنا اكشف لك عن الموت فى مضمونه
الشجاعة قيمتها فى أنها تتحدى الموت .

والإصرار قيمته فى أنه يواجه الموت .. وهكذا كل مثل أخلاق ..
قوته فى أنه يواجه مقاومة . . وهو ينهار . . وينهار مضمونه حينما
لا تكون هناك مقاومة فى مواجهته . .

الفنان والفيلسوف ورجل الدين ثلاثة يقفون على بوابة الموت . .
الفيلسوف يحاول أن يجد تفسيرا .

ورجل الدين يحاول أن يجد سبيلا للاطمئنان . .

والفنان يحاول أن يجد سبيلا إلى الخلود . . يحاول أن يترك مولوداً
غير شرعى على الباب يخلد اسمه . . قطعة موسيقية أو تمثال
أو قصة أو قصيدة .

كلنا يخلقنا الموت . . الموت المدهش .

لو لم نكن نموت لما شعرنا بالحب . . فما الحب إلا هستيريا التشبث
والتعلق بالحياة . . ومحاولة تهريبها كالمخدرات فى بطون الأمهات .

ولو كنا خالدين لما أحببنا أحداً . . ولما وجدنا داعياً لأن
نتناسل . . ولاكتفينا بأنفسنا نتعشقها بلا حاجة إلى ديانة أو فن
أو فلسفة أو أخلاق . .

وما الداعى إلى أخلاق فى مجتمع من الخالدين .. إن الأخلاق هى
الخرسانة والمسلح الذى ندعم به بيوتنا المنهارة . . ونمسك به هياكلنا
الفانية .. فإذا كنا من الخالدين لا نمرض ولا نموت ولا نضعف ولا يصيبنا
شر فما لزوم الأخلاق .

إن كل ما هو جميل وخير وحسن فى مجتمعنا خارج من هذه الفجوة . . الموت .

وكل ما هو جميل فى إنسانيتنا خارج من هذه الفجوة أيضاً .

إن حياتنا غير منفصلة عن موتنا . . فكل منهما مشروط بالآخر .

والأصدق أن نقول إنه لا توجد حالتان . . حياة وموت . . ولكن حالة واحدة هى الصيرورة . . حالة متناقضة فى داخلها ومحتوية على الإثنين معاً الحياة والموت ..

حالة متحركة نابضة صائرة من حياة إلى موت ومن موت إلى حياة وفى كل لحظة منها تحمل الجرثومتين معاً ، جرثومة نموها وجرثومة فنائها فى نفس الوقت .

وهما جرثومتان لا هدنة بينهما . . ولا تعادل وإنما صراع وتوتر وتمزق وشرر متطاير مثل الشرر الذى يتطاير من أقطاب الكهرباء السالبة والموجبة حينما تلتقى . . وهما مثلهما أيضاً . . تبعثان حرارة ونوراً . . هما العاطفة والوعى اللذان يندلعان فى عقل الإنسان الذى يعيش هذا الصراع بسالبه وموجبه . .

وهو صراع يبدو فيه العنصر الموجب أقوى من السالب . . وتبدو الحياة غلابة صاعدة منتصرة . .

* * *

كلام جميل .. ولكنه مع هذا كله لا يجعل الموت جميلا فى عيوننا .

إنه يفشل حتى فى الاعتذار لنا عن عزرائيل وأفعاله . . حتى ولو

كانت فى صالح الكون .. فالنا والكون .. نحن كون فى ذاتنا .. وعزرائيل ينتهك أطهر حرماتنا ، نفوسنا .. أنا .. وانت .

إن أجمل اللحظات فى حياتى هى التى أقول فيها .. أنا فعلت .. أنا قدمت .. أنا أنجزت .. أنا اخترعت .. أنا .. أنا ..

لا يوجد شيء فى وجودى .. أو وجودك .. أغلى من هذه الكلمة الصغيرة .. أنا .. فكيف يمكن أن أتصور أن أموت ..

انى أستطيع إحداث الموت .. أستطيع أن أقتل وأن أنتحر ..

كيف يكون الموت أحد اختراعاتى .. وأكون أنا أحد ضحاياه فى نفس الوقت .

أين اللغز الحقيقى .. أهو الموت .. أم هو هذه الكلمة الصغيرة .. أنا ؟ ..

أنا

أنا من الخارج لى حدود لى سقف ينتهى عنده
جسدى . . ولـكننى من الداخل
بلا سقف . . .
ولا قاع . . .

أنا . . كلمة ظريفة . . لا يوجد أظرف منها فى الدنيا.. انها أغنية . .

انها تدخل فى أى جملة فتجعلها جملة مفيده مهمة . . وتدخل فى أى موضوع فتجعله موضوع الساعة . . لأنه يصبح موضوعى أنا .. وفلوسى أنا . . وحبيبى أنا . . وروحى أنا . . وقلبى أنا ؟

ولـكن أنا . . ؟ . . من أنا ؟

هل حاول أحدكم أن يسأل نفسه هذا السؤال . .

من أنا ؟ . .

أنا فلان . . فلان إيه . . فلان ابن فلان . . يعنى إيه . . مجرد ألفاظ مجرد رموز أو اشارات تدل على حقيقتى . طيب وإيه هى حقيقتى ؟ . .

وهنا يبدأ اللغز .

ماهى حقيقتى . .

إنى أحاول أن أمسك بوجودى وأكتشفه وافحصه كما أفحص هذه المجبرة فأجد أنه وجود بلا قاع . . وجود مفتوح من الداخل على إمكانيات لانهاية لها . . وألقى بحصاة فى هذا البئر الداخلى فلا أسمع لها صوتاً . . لأنها تهوى وتهوى إلى أعماق بلا آخر . .

أنا من الخارج لى حدود . . ينتهى طولى عند ١٧٠ سنتيمتر . . لى سقف ينتهى جسدى عنده . . ولكنى من الداخل بلا سقف وبلا قعر .. وإنما أعماق تؤدى إلى أعماق .. وأفكار وصور وأحاسيس ورغبات لا تنتهى إلا لتبدأ من جديد كأنها متصلة بينبوع لا نهائى . . وهى أعماق فى تغير دائم وتبدل دائم . . بعضها يطفو على السطح فيكون شخصيتى وبعضها ينتظر دوره فى الظلام . .

وأنا فى الخارج أتبدل أيضاً .. الواقع يقشط هذه القشرة التى تطفو خارجى فتطفو قشرة أخرى من عقلى الباطن محلها . .

وكلما أمسكت بحالة من حالاتى وقلت هذا هو أنا .. ما تلبث هذه الحالة أن تفلت من أصابعى وتحل محلها حالة أخرى .. هى أنا .. برضه ..

شيء محير !! ..

وأنظر حولى فى العالم .. فأجد إنى أعوم فى هذا العالم كما تعوم البطة فى الماء .. تجدف فيه بريشها ولا تبتل وإنما ينزلق من عليها الماء كأنه من من عنصر آخر غريب عنها . .

أنا متصل بالعالم منفصل عنه فى نفس الوقت . .

انه يدخل فى تكوينى بحكم المسكن والمأكل والمشرب والاتصال بالآخرين . . ولكنه غير ملتصق بى . . انه يذكى شعورى ويثير اهتمامى فقط . . وبمقدار اهتمامى أظل على علاقة به فاذا انتهى اهتمامى نفضته تماما كما تنفض البطة الماء من ريشها حينما تصل إلى الشاطئ .

إنى أحتضن العالم باختيارى وأخلع عليه اهتمامى وشخصيتى وأتبناه وأظل مصاحباً له طالما هو . . أنا . . فاذا انتهت هذه العلاقة . .الأنانية. عدت إلى نفسى ..

ولكنى لا أنجو مع هذا من الابتذال .. والتردى فى هوة الناس ..

العالم يبتذلنى أحياناً فأذوب فيه بعض الوقت .. أفعل ما يطلبه منى رئيس تحرير المجلة التى أعمل بها وأؤدى ما يطلبه منى مدير المستشفى الذى أشتغل فيه طبيباً ..

وأخضع لروتين العادة والعرف والمجاملات وأضيع نفسى فى الثرثرة وأختبئ وراء المشاكل اليومية . . وأتستر خلف الناس . . وأقول وانا مالى . . هم عاوزين منى كده . . الدنيا كلها بتعمل كده ..

وفى هذه الحالات تضيع منى نفسى .. تضيع منى .. أنا .. وأصبح موضوعا من الموضوعات مثل الكرسى والشجرة والكتاب .. وأفقد الشىء البكر الذى يميزنى عن كل شىء .. ويجعل منى نسيجاً وحده .. يجعل منى .. أنا .. فلان الفلانى ..

هذه وقات لا الأحس أبها .. وإنما تبدو ممسوحة ومشطوبة من حياتى .. تبدو فترات موت ..

حريتى تعذبنى .. لأنى حينما أختار .. أتقيد باختيارى .. وتتحول حريتى إلى عبودية ومسئولية .. وهى مسئولية لاينفع فيها إعفاء لأنها مسئولية أمام نفسى ... أمام الاختيار الذى اخترته أنا ..

وليس أمامى سبيل غير أن أختار .. لابد أن أختار فى كل لحظة .. فإذا أضربت عن الاختيار .. كان إضرابى نوعاً من الاختيار .. علىّ أن أدفع ثمنه فوراً ..

وحبى يعذبنى لأنى أريد أن أمتلك محبوبتى وأذيبها فى داخلى وأشرب شخصيتها وروحها وجسدها .. أريد أن أحولها إلى .. أنا .. وهذا مستحيل لأنها هى الأخرى لها .. أنا .. وذات حرة مثلى . .

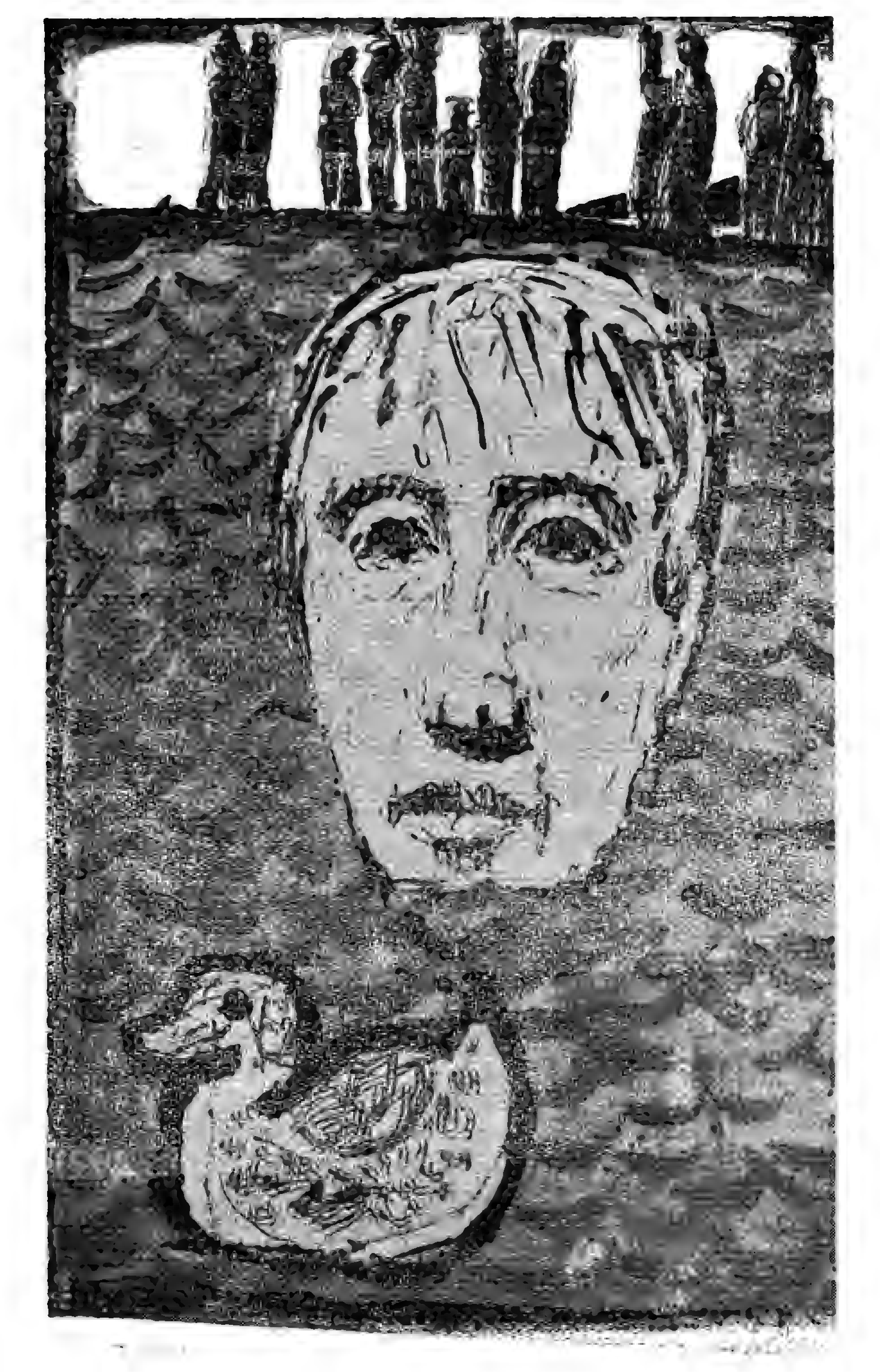
إن كل ما نستطيعه هو أن نتعانق وتتلامس شفاهنا .. وتتلامس حقائقنا وأسرارنا فى لحظات مضيئة . . ثم نمضى إلى حالنا .. كل واحد مغلق على سره .

إن كل ما نملكه هو أن نفتح نوافذنا على الخارج ، ولكننا لانستطيع أن ننقل عفشنا .. ونسكن بيتاً جديداً .

إن روحنا سر .. وذواتنا قدس الأقداس . .

إن الله يضع كل جنده على باب ذاتنا كما يقول طاغور . . ولا يسمح لأحد منهم بالدخول فيها .. لأنها حرم .. حرمها على الكل .. وخلقها حرة كالطائر الفرد . .

* * *



ماذا هناك .. ماذا وراء الباب ..

ماذا بداخلى ..

إرادة .. إرادة لانهائية لا حد لها إلا نفسها .. إرادة حرة خالقة مبدعة .. تنبثق إنبثاقاً فى بداءة وفطرة .. أحسها ولا أعرفها أكابدها ولا أفهمها .. لأنها تفر منى كلما حاولت فهمها كما يفر النوم من عينى كلما حاولت أن أتعمقه وأحلله .. وربما كان السبب أنها أصيلة أكثر أصالة من العقل والتفكير .. ولا يمكن أن تكون موضوعاً للعقل والتفكير .. بل العكس هو المقبول .. أن يكون العقل موضوعها وخادمها .. وسبيلها إلى بلوغ أهدافها ..

أنا أريد .. والعقل يبرر لى ما أريد .. وليس العكس أبداً ..

إن كل شىء خاضع للإرادة .. ثانوى بالنسبة لها ..

فى لحظات إبداعى وخلق .. فى اللحظات التى أحس فيها إنى أخلق نفسى وأخلق الأفكار والقيم واكتشف العالم وأصنع المعقولات .. أحس أنى أدفع العالم كله أمامى .. أدفعه كالعربة ..

وفى اللحظات التى أموت فيها وأسقط فى هوة العادة والتكرار والتقليد والمجاملات والروتين .. وتضيع إرادتى من يدى .. أحس بأن العالم كله يدفعنى أمامه كالعربة ..

أحس أن إرادة حصان فى الطريق يمكنها أن تعدل طريقى وتغير سكتى ..

أحس بأن عين جارى تجعلنى أنكمش فى ثيابى كأنها عين الله ..

لا شيء فى الدنيا أكبر من الإرادة ..

الظروف المالية .. والبيئة والوراثة .. لا تلغى الإرادة ولا تمحو الحرية أبداً .. ولكنها تؤثر فيها .. تؤثر فى الكيفية التى تعلن بها عن نفسها ..

أنا والظروف نتصارع فى لحظة الفعل فقط .. ولكن كل منا له وجوده البكر .

أنا حر وإرادتى حقيقة.. تماماً كما أن الظروف موجودة وحقيقية. ولكن ما هى الإرادة ؟..

لا توجد كلمة تصفها أو تشرحها .. لأنها أكبر من كل الكلمات ولأنها تحتوى على كل الكلمات وتتجاوزها .. فكل وصف يبدو حيالها ناقصاً .. إنها كالشوق لا يوصف وإنما يكابد ..

إنها تنطبق عليها كلمة المتصوف الصالح .. أبو البركات البغدادى أظهر من كل ظاهر وأخفى من كل خفى ..

إن أحسن طريق لمعرفتها هى أن تباشرها .. فهى المفتاح السحرى الذى تفتح به الكون كله ..

ولكن هناك أسئلة تتوارد على خاطرنا ..

هل الإرادة موجودة فى الزمان ..

هل هى تنبض مثل القلب ..

هل تنمو مثل الجسد ..

هل تتعاقب مثل اللحظات .. وتنقضى مثل الحالات النفسية ..

هل تسرى مثل الضوء والكهرباء وتنتقل كما تنتقل الحرارة ..
وهى أسئلة تفتح علينا الباب على مشكلة أخرى هى .. الزمان..
ما هو الزمان ؟..

هل هو حركة عقرب الثوانى والدقائق والساعات ؟..

هل هو دقات ساعة الجامعة ؟

هل هو الأرقام العامة التى تنشرها مصلحة الأرصاد عن توقيت الأيام والليالى وساعات الظهر والمغرب والعشاء . .

أم هو زمن آخر خاص يعيشه كل واحد منا فى نفسه ويضبط عليه وجوده . .

اننا بهذه الأسئلة نبلغ المنطقة التى يكثر فيها الضباب وتصعب الرؤية . .

انها تحملنا إلى تحت . .

انها تنزل بنا من الأوراق إلى الساق إلى الجذر . . إلى ماتحت الخشب واللحاء . . إلى العصارة التى تصعد فى نباتنا فتبعث فيه الحياة..

إننا ننفض يدنا من تشريح الأيدى والأرجل ونبدأ فى بحث الحركة نفسها . ونكف عن قياس قوة العضلات لنبحث فى الإرادة ذاتها . . لأننا فى غرفة الموتور حيث أنبوبة الاحتراق التى تبعث كل الطاقة . .

وهنا تتصادم الأفكار والنظريات والمذاهب فى الظلام . .

الزمن

إن دقات ساعة الحائط تقدم لك زمناً مزيفاً . .
ابحث عن زمنك الحقيقى فى دقات قلبك . .
ونبض إحساسك . .

كل شيء فى الدنيا يجرى ويلهث . .
الشمس تشرق وتغرب . .
والنجوم تدور فى أفلاكها
والأرض تدور حول نفسها
والرياح تهب فى الجهات الأربع
والسيول تنهمر من أعلى الجبال
والينابيع تنفجر من باطن الأرض . .
والنبات والحيوان والإنسان تعيش كلها فى حركة دائبة . .
وذرات الجماد تهرول فى مداراتها . .
وظاهرات الطبيعة كلها عبارة عن حركة . . الكهرباء حركة . .

والصوت حركة .. والضوء حركة .. والحرارة حركة .. والكون كله يتمدد مثل فقاعة من الصابون وينفجر فى كل قطر من الفضاء ..

المادة فى حالة انتشار وذبذبة وحركة ولهذا يقول اينشتين أن لها بعداً رابعا غير الأبعاد الثلاثة المعروفة .. هذا البعد هو الزمن ..

انها مثل حيوان له طول وعرض وسمك وعمر .. والعمر يدخل فى تركيبها . . كما يدخل فى تركيب الحيوان . . الزمن إحدى الفتلات التى يتألف منها نسيج المادة . .

وهو أيضا إحدى الفتلات التى يتألف منها نسيج الكائن الحى .

* * *

ولكن ما هو الزمن .

هل هو دقات ساعة الجامعة . . والنتيجة المعلقة بالحائط والتقويم الفلكى بالفصول والأيام . .

إننا مازلنا نذكر كلمات المراقب ونحن نؤدى الامتحان فى آخر كل سنة ...

باقى على الزمن نصف ساعة . .

نذكر الرجفة التى كنا نحس بها ونحن ننظر إلى ورقة الإجابة وإلى ورقة الأسئلة .. وإلى الساعة فى يد المراقب .. وإلى شفتيه وهما تنطقان باقى على الزمن نصف ساعة .

كأنه ينطق حكماً بالإعدام .. أو حكماً بالإفراج ..

كانت النصف ساعة عند بعضنا قصيرة جدا . . أقصر من نصف دقيقة . . لأن ورقة الإجابة مازالت بيضاء أمامه . . ولأنه ما زال يبحث . . ويهرش فى رأسه . .

وكانت عند بعضنا الآخر طويلة مملة .. أطول من نصف يوم .. لأنه قد انتهى من الإجابة .

كانت الساعة فى يد المراقب تشير إلى زمن واحد . . ولكن كلا منا كان له زمن خاص به . .

كان معيار الدقائق عند كل منا يختلف عن الآخر . .

وهذا هو مفتاح اللغز . .

* * *

إن الزمن ليس شيئاً منعزلا عنا مثـــل الشجرة والمحبرة والكتاب ... ليس زمبلكا تحتويه ساعة اليد . . ولكنه شيء يلابسنا لكل منا زمن خاص به .

عواطفنا واهتماماتنا هى الساعة الحقيقية التى تضبط الزمن وتطيله أو تقصره .

أفراحنا تجعل ساعاتنا لحظات .

وآلامنا تجعل لحظاتنا طويلة مريرة ثقيلة مثل السنين وأطول . .

إحساسنا بالسرعة والبطء ليس مصدره ساعة الحائط ولكن مصدره الحقيقى الشعور فى داخلنا . .

إن ساعة الحائط تقدم لنا زمنا مزيفاً . . ومثلها التقويم الفلكى الذى يقسم حياتنا إلى أيام وشهور وفصول .

والتاريخ الذى يقسم أعمارنا إلى ماض وحاضر ومستقبل . . لأن حياتنا غير قابلة للقسمة . . ولأن الزمن فى داخلنا غير قابل للقسمة أيضاً . .

إن حياتنا لحظة طويلة مستمرة يصاحبها إحساس مستمر بالحضور ونحن نتعرف على الماضى من خلال هذا الحاضر . . فحينما نعيش فى إحساس بالتذكر نسميه ماضياً . . وحينما نعيش فى إحساس بالتوقع نسميه مستقبلا . . ولكن كل هذه الإحساسات هى حاضر .

والفواصل بين الماضى والحاضر والمستقبل فواصل وهمية لأن اللحظات الثلاث تتداخل فى بعضها البعض كما يتداخل الليل والنهار عند الأفق . .

والذى يقوم بتعيين اللحظة فى الشعور هو الانتباه .

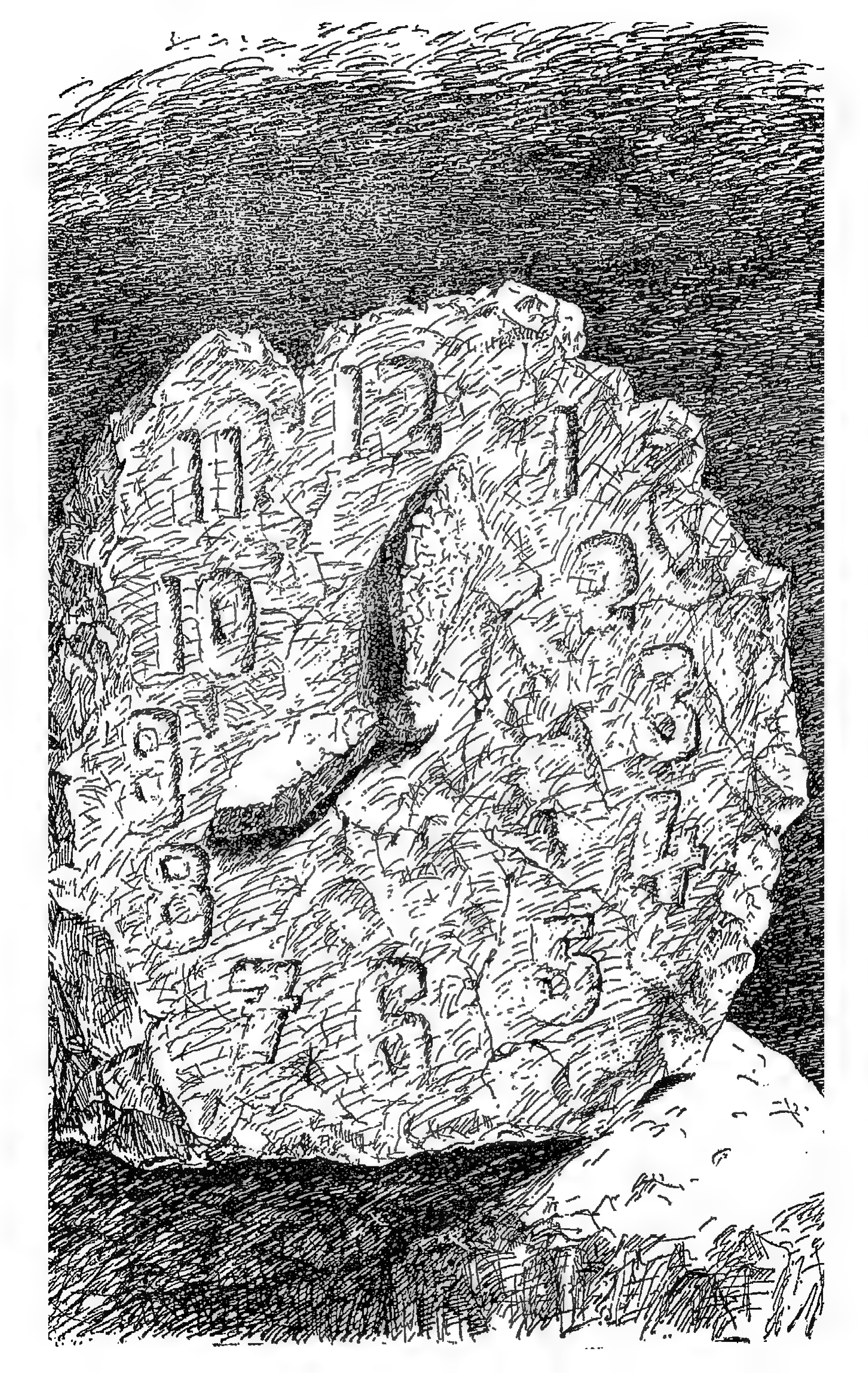
الانتباه هو الذى يضع خطاً تحت بعض مشاعرنا وإحساساتنا فيخيل لنا أننا وقفنا لحظة والحقيقة أنه لا وقوف أبداً . . وإنما نحن نعيش فى حالة تدفق داخلى مستمر أبداً ودائماً . .

والزمن الخارجى . . زمن الساعات والمنبهات زمن كاذب خداع لأنه يساوى بين اللحظات ويجعلها مجرد أرقام على ميناء . .

الساعة واحدة .. الساعة اثنين . . الساعة ثلاثة . . مجرد حركة من العقرب .. وانتقال بضعة سنتيمترات على الميناء ..

انه ليس زماناً ولكنه أوضاع مختلفة فى المكان . . أما الزمن الحقيقى فهو داخلنا . . وهو اضطراب دائم لا تتساوى فيه لحظة بأخرى . . لحظة صغيرة . . ولحظة كبيرة . . ولحظة تافهة . .

وهو غير قابل للتكرار . . لأن كل لحظة تحتوى على الماضى كله ومعه علاوة من الحاضر . . وفى كل لحظة تضاف علاوة جديدة من التجربة والحياة فلا تعود الحياة قابلة لأى تكرار . . وإنما هى تعلو على الدوام


11
12
10
9
4
8
5
7
6

مثل نهر جار يزداد فيه الماء بين لحظة وأخرى . . ولا يتشابه فيه الماء في لحظتين متتاليتين . .

إن العالم داخلنا يختلف كثيرا عن العالم خارجنا .

إن العالم خارجنا متعدد منقسم إلى أجزاء منفصلة متجاورة في المكان .. يمكن أن نشاهد فيه وحدات متكررة . .

والعالم داخلنا شيء آخر بالمرة . .

انه تدفق لا تتشابه فيه لحظة بأخرى ولا يتكرر فيه إحساس واحد مرتين . .

ولا تتجاور لحظاته وأنما تتتابع . . وتتلاحق .. وتتداخل في وحدة غير قابلة للقسمة هي حياتنا . .

وبهذا يكون هناك زمانان ..

زمن نراه من الخارج على هيئة شروق وغروب وعصر وظهر . . وساعات ودقائق . .

وزمن آخر نشعر به من الداخل على شكل تدفق يتصف بالدوام، والاستمرار والاتصال . .

ونحن نرى الزمن الخارجي بالعقل وندركه بالتحليل والقياس والحساب ونعبر عنه بواسطة الأرقام . .

وندرك الزمن الداخلي مباشرة وبدون واسطة . . على شكل مكاشفة داخلية لكياننا . .

ولذلك نقول عن الزمن الداخلي أنه الزمن الحقيقي لأن الحقيقة تطالعنا فيه عارية بدون وساطة وبدون رموز . .

وهذا النوع من الإحساس يشبه إحساسنا بالحركة . . حينما نحرك ذراعنا فنحس أننا نحركه إلى فوق بدون حاجة إلى أن نراه . . لأننا نحس بهذه الحركة من الداخل مباشرة بدون وساطة الرؤية . .

بينما يحتاج الذى يشاهدنا من الخارج أن يرى حركات ذراعنا بعينيه ويتبعها ويحللها بعقله ليقول أننا نحرك ذراعنا إلى فوق . .

ومعرفتنا نحن أرقى من معرفته لأننا نعاين الحقيقة مباشرة . .

وبهذه المعرفة اكتشفنا الزمن . . زمننا الحقيقى .

* * *

ولكننا لا نعيش حياتنا كلها فى الزمن الحقيقى لأننا لا نعيش فى نفوسنا كل الوقت . . وانما نعيش فى مجتمع . . نخرج ونختلط بالناس ونتبادل المنفعة ونتعامل ونتكلم ونأخذ ونعطى . .

ولهذا لا نجد مفرا من الخضوع للزمن الآخر . . زمن الساعات . . فنتقيد بالمواعيد ونرتبط بالأمكنة .

ونبحث عن الأشياء المشتركة بيننا لنتفاهم . . وفى أثناء بحثنا عن الأشياء المشتركة تضيع منا الأشياء الأصيلة .

العرف والتقاليد والأفكار الجاهزة تطمس الأشياء المبتكرة فينا وتطمس الذات العميقة التى تحتوى على سرنا وحقيقتنا . .

ونمضى فى زحام الناس وقد لبسنا لهم نفسا مستعارة من التقاليد والعادات لنعجبهم . .

وتتكون عندنا بمضى الزمن ذات اجتماعية تعيش بأفكار جاهزة وعادات وراثية ورغبات عامة لا شخصية .

وهذه الذات سطحية ثرثارة تقضى وقتها فى التحازى والتهانى والمجاملات والمعايدات والسخافات وتنفق حياتها فى علاقات سطحية تشبه المواصلات المادية التى توصل من الباب إلى الباب ولا توصل من القلب إلى القلب .

وهذه الذات التافهة هى غير الذات العميقة التى نغوص إليها فى ساعات وحدتنا ونكتشف فيها أنفسنا ونتعرف على وجوهنا الحقيقية . .

انها ذات جامدة مثل الجسد تحكمها الغرائز والضرورات الاجتماعية..

وهى تشبه المرحاض النفسانى نفرز فيه كسلنا وضيقنا ومللنا ونقتل فيه وقتنا بانشغالات رخيصة تافهة مثل قزقزة اللب ولعب الطاولة . .

ونحن نتأرجح فى حياتنا بين هذه الذات السطحية وبين الذات العميقة . . نهبط مرة ونعلو مرة .. نعيش فى زمن الساعات لفترة طويلة من يومنا فى وظائف وأعمال آلية وروتينية . .

ونعيش فى لحظات قليلة متألقة فى داخلنا فى زمننا الحقيقى الجياش فنهتز بالنشوة ونشرق بالسعادة ونرتجف بالقلق ونمتلىء بالفضول واللذة ونعرف نفوسنا على حقيقتها وبكارتها . .

ونحن نكتشف هذه النفوس البكر فى مغامرات قليلة . .

نكتشفها لأول مرة فى مغامرة الحب حينما نعثر على المرأة التى تهز وجودنا . . وتخترقنا . . وتخترق عادتنا وتفكيرنا وحياتنا . . وتقلبها رأساً على عقب . . فتبدو كأنها حياة جديدة عجيبة . .

ونكتشفها لثانى مرة فى مغامرة الفن . . فى لحظة الإلهام التى ينفتح فيها شعورنا على إدراك جديد وتصوير جديد للدنيا . . فنكتب أو نغنى أو نرسم أو نقول شعراً . .

ونكتشفها لثالث مرة فى مغامرة التأمل .. فى لحظة الجلاء الفكرى التى نضع يدنا فيها على حقيقة جديدة فينا أو فى الناس حولنا . .

ونكتشفها لرابع مرة فى المعمل . . فى لحظة الإختراع التى نعثر فيها على سر من أسرار الطبيعة يبهرنا ويدهشنا . . ويصدمنا ..

كل هذه الاكتشافات تخرجنا من الزمن المبتذل المتكرر . . زمن الساعات .. وتنزل بنا إلى أعماقنا .. إلى زمننا الحقيقى حيث كل شىء جديد مبتكر . . مدهش . . جميل . . باعث لأقصى اللذة والفضول . .

وفى الفصل القادم نخرج معاً . . فى إحدى هذه الرحلات الكشفية الجميلة . . رحلة الحب . .

أحبك

الشهوة تكشف لك عن نوعك عن
ذكورتك أو أنوثتك . . ولكن الحب . .
الحب وحده . هو الذى يكشف لك عن
نفسك . . عن ذاتك .

أحبك . .

كلمة لذيذة تصيبنا بالخدر والدوار

كل شىء فينا يذوب ويتفتت حتى اللغة نفسها تذوب والزمن يذوب
والمكان يذوب والعقل يذوب والقلب يذوب . . ونحن ننطقها . .

* * *

اللغة تتعطل فى لحظة الحب ويحل محلها سكوت ناطق معبر . .

والزمان والمكان يتلاشيان فى غيبوبة صاحية تكف فيها اللحظات

عن التداعى وتنصهر فى إحساس عميق بالنشوة والنصر والفرح ..

قد تكون هذه النشوة لحظة واحدة .. ولكن هذه اللحظة تصبح كالأبد ..

الحب يؤبدها فتستمر ماثلة أمام الشعور .. تستمر فى المستقبل لسنوات طويلة تلاحق صاحبها وقد ألقت ظلا طويلا على حياته .. وامتزجت بصحوه ونومه وأخلامه وهذيانه .. والتصقت به من داخله فأصبح من المستحيل عليه أن ينفضها مع ثرثرة كل يوم ومشاغله وتفاهاته ..

أصبحت بعض نفسه .. تحيا بحياته .. وتموت بمماته .

* * *

فى لحظة الحب ينفتح شىء فينا .. ليس الجسد .. بل ماهو أكثر .. بوابة الواقع كلها تنفتح على مصراعيها فتتلامس الحقائق والمعانى الجميلة والمشاعر التى يحتوى عليها الحبيبان .

ويحدث الإنسجام من هذا التماس بين الأفكار والمعانى والأحاسيس الرقيقة ..

ويخيل للاثنين فى لحظة أنهم واحد .. ويسقط آخر قناع من أقنعة الواقع .. فتذوب الأنانية التى تفصلهما .. ويصبحان مصلحة واحدة وفكرة واحدة .

ولكنها لحظة خاطفة لأن الواقع الصفيق ينسدل من جديد بين الحبيبين فيعود الهم يعزلها الواحد عن الآخر هم الزمن والساعة



إلى أزفت والميعاد الذى انتهى والوقت الذى حتم على كل منهما أن يعود إلى عمله .. وهم المكان الذى يعزلها كل واحد فى بلد .. وهم الجسد الذى يحوى كلا منهما فى كيان مستقل من اللحم والدم . . وهم المجتمع الذى يحتوى على الإثنين ويطالبهما بالتزامات وواجبات . . وهم الماضى الذى يدخل كشريك ثقيل الظل فى كل لحظة ..

أننا لا نعيش وحدنا .. بل هناك الآخرون .. وكلهم ينازعونا حريتنا ولقمتنا وحياتنا ..

وفى هذا الزحام نضيع ويطمس الواقع على أحلامنا ويأخذنا معه فى دوامة من التكرار السخيف من الأكل والشرب والنوم .. لا نفيق منها إلا لنغيب فيها من جديد وتمضى حياتنا فى روتين عمل لا نلتقى فيه بأنفسنا أبدا .. ولا نذوق الحب ولا نعرفه .

وقد نتزوج ونعيش حياة بليدة هادئة .. نلتقى فيها بزوجاتنا كما نلتقى بدفاتر الحضور فى الديوان .. نوقع عليها كل ليلة لنثبت حضورنا فى الميعاد .. ونعيش حياتنا الجنسية بدون وجدان .. وتظل الزوجة فى نظرنا مجرد أنثى لقضاء الحاجة .. يمكن أن تحل محلها الخادمة أو أية امرأة بدون أن نحس أن شيئاً ما ناقص أو مفقود .

* * *

ان الشهوة شىء غير الحب ..

انها أقل من الحب بكثير .. فهى رغبة النوع وليست رغبة الفرد ..

انها علاقة بين طبيعتين وليست علاقة بين شخصين . . علاقة بين الذكورة والأنوثة ..

والفرد لا يكتشف فيها نفسه ولكنه يكتشف نوعه وذكورته . .

والحب يحتوى على الشهوة ولكن الشهوة لاتحتوى عليه . .

بالحب لاتكتشف فقط أنك ذكر . . ولكنك تكتشف أيضاً أنك فلان وأنك اخترت فلانه بالذات ولا يمكن أن تستبدلها بأخرى . .

إن كلمة « أحبك» هى أعمق وأجمل كلمة فى حياة الرجل لأنها ليست مجرد كلمة وإنما هى نافذة يطل منها على حقيقته وسره . .

والحياة الخالية من الحب حياة باردة موحشة سخيفة خالية من الحماس والطعم والبهجة . . تنساب فيها الرغبات مضعضعة ميتة من الملل والضجر والفراغ . .

الحياة بلا حب . . غربة . .

والشهوة لا تسعفنا ، ولا تطفىء عطشنا ولا تعوضنا عن الحب .

انها وسيلة للهروب فقط نبدد بها نشاطنا ونتخلص منه .

انها مثل الخمر والقمار والمخدرات وسيلة للإغماء والإعياء والبلادة...

* * *

والشىء الوحيد الذى يستطيع أن يحل محل الحب هو الفن .. .لأنه ينفذ إلى القلب مثله . . ويكشف مثله عن ذاتنا العميقة . . ويوصلنا إلى اللحظات الأبدية المليئة . . ويطلعنا على كنوزنا وأسرارنا ..

وما يبدعه الإنسان من فنون خالدة يدل على أنه يحتوى على بذرة الخلود فى داخله .

وما يعيشه من لحظات أبدية يدل على أنه يحتوى على الأبدية فى قلبه .

* * *

إن الإنسان معجزة المتناقضات .

إنه فان ويحتوى على خالد

وميت ويشتمل على حى

وعبد ويحتضن قلباً حراً

وزمنى ويحتوى على الأبدية

وحبه وفنه وتفكيره . وصحته ومرضه وجسده . وتشريحه تدل كلها على هذا التركيب المتناقض .

الدنيا كلها تقيده وجسده يقيده مثل الجاكتة الجبس. ومع ذلك .. لا تمنعه هذه القيود من أن يضمر فى نفسه شيئاً . وأن يفرض هذا الشىء على ظروفه .

فهو يصهر الحديد ويسوى الجبال بالأرض ويشق الأنفاق ويطلق قذيفة من عدة أطنان إلى القمر . كل هذا وهو جسم صغير هلامى من اللحم والدم . .

وهو يرقد مريضاً مشلولا يائسا . . فإذا اجتمع بزوجته أنجب طفلا يرقص من الصحة والعافية . .

أين كانت هذه الصحة مختفية فى المرض . .

وهو يبدو ضعيفاً قليل الحيلة.. تقتله رصاصة بعلم.. تماماً مثل الرصاصة التى تقتل الكلب .. ولكنه مع هذا يستطيع أن يطلق من فمه قبل أن يموت صيحة يهدم بها نظاماً بأسره ..

من أين يخرج صوته .. وينساب تفكيره .. وينصب شعوره .. وتتدفق قواه الغير محدودة ..

إن أعضاءه تبدو فى التشريح من مادة تقبل الوزن والقياس. وتخضع للزمن ..

ولكن شعوره يكشف عن مادة أخرى وزمن آخر يعيش فيه غير زمن الساعات والدقائق .. زمن حر يقصر ويطول حسب إرادته ..

وتعمق هذا الشعور فى لحظات الحب والإلهام. يكشف عن حقيقة أغرب ..

إن هناك أفقاً ثالثاً فى داخله ..

أفق غير زمنى .. لحظاته أبدية مليئة .. لا تنقضى مثل اللحظات وإنما تظل شاخصة فى الشعور ماثلة للوجدان ..

ما هى تلك اللحظات ..

أتكون هى الثقوب التى تطل على سره ..

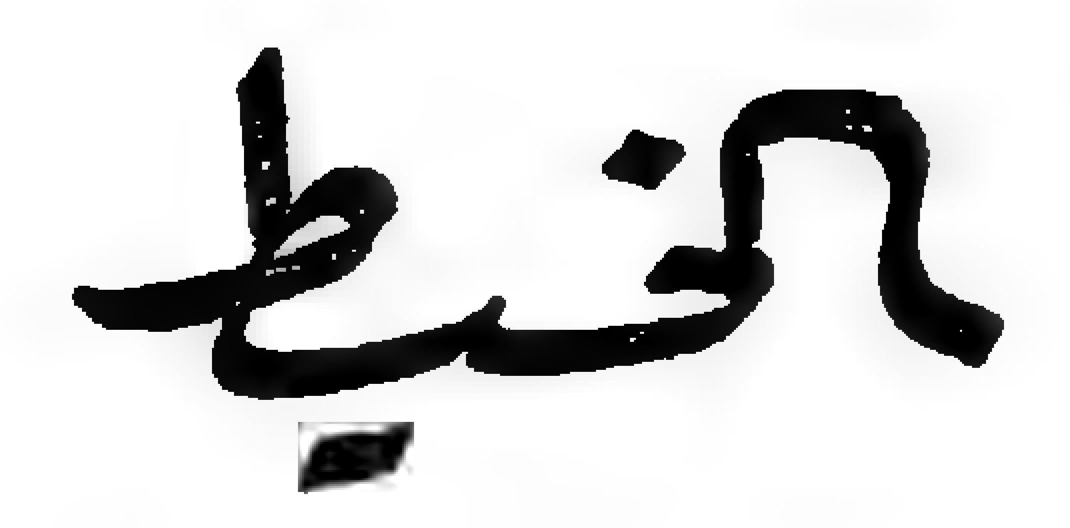
وما هو سره الخافى تحتها ..

أهو الروح ؟ !! ..

وما الروح ؟ ! ..

إنها الحرية ..

الحرية جوهر الإنسان وروحه .. ومن خلال محاولتنا لفهم الحرية سوف نقترب من فهم الروح ..



القشة فى البحر يحركها التيار والغصن
على الشجرة تحركه الريح.. والإنسان وحده..
هو الذى تحركه إرادته....

أجمل مافى الدنيا أنها واضحة .. تغمرها الشمس .. كل شىء فيها يمكنك أن تراه وتسمعه وتزنه وتقيسه وتتذوقه وتحلله وتستنتجه ..

كل مايحدث فيها له سبب .. وإذا عرفت سببه استطعت إحداثه .. كل شىء يجرى بنظام محكم من الأسباب والنتائج .. وإذا كانت لديك ورقة وقلم فإنك تستطيع أن تحسب بالضبط متى تشرق الشمس ومتى تغرب .. لأنها تتحرك حسب قانون ..

وكل شىء فى الدنيا يتحرك حسب قانون ..

إلا الإنسان .. فهو يمشى على كيفه ..

الإنسان وحده هو الحر المتمرد الثائر على طبيعته وظروفه ولهذا يصطدم بالعالم ويصارعه .. ويستحيل فى أية لحظة أن تتنبأ بمصيره .. إن مايحدث داخل الإنسان وفى قلبه لا يخضع لقانون .. لاتوجد هذه الحلقات المترابطة من الأسباب والنتائج فى داخل نفوسنا ..

إننا نرغب .. ونتحمس .. ونعمل ولكن هذه السلسلة من الرغبة والحماس والعمل .. لا تتبع الواحدة الأخرى حتما .. وإنما يظل الإنسان قادراً على التملص فى أية لحظة .. فإذا تراءى له أن يصرف النظر .. فإن رغبته تموت وحماسه يبرد ولا يتسلسل إلى غايته ..

والسبب ؟ ..

لا يوجد سبب ..

إنه لم يعد يريد ..

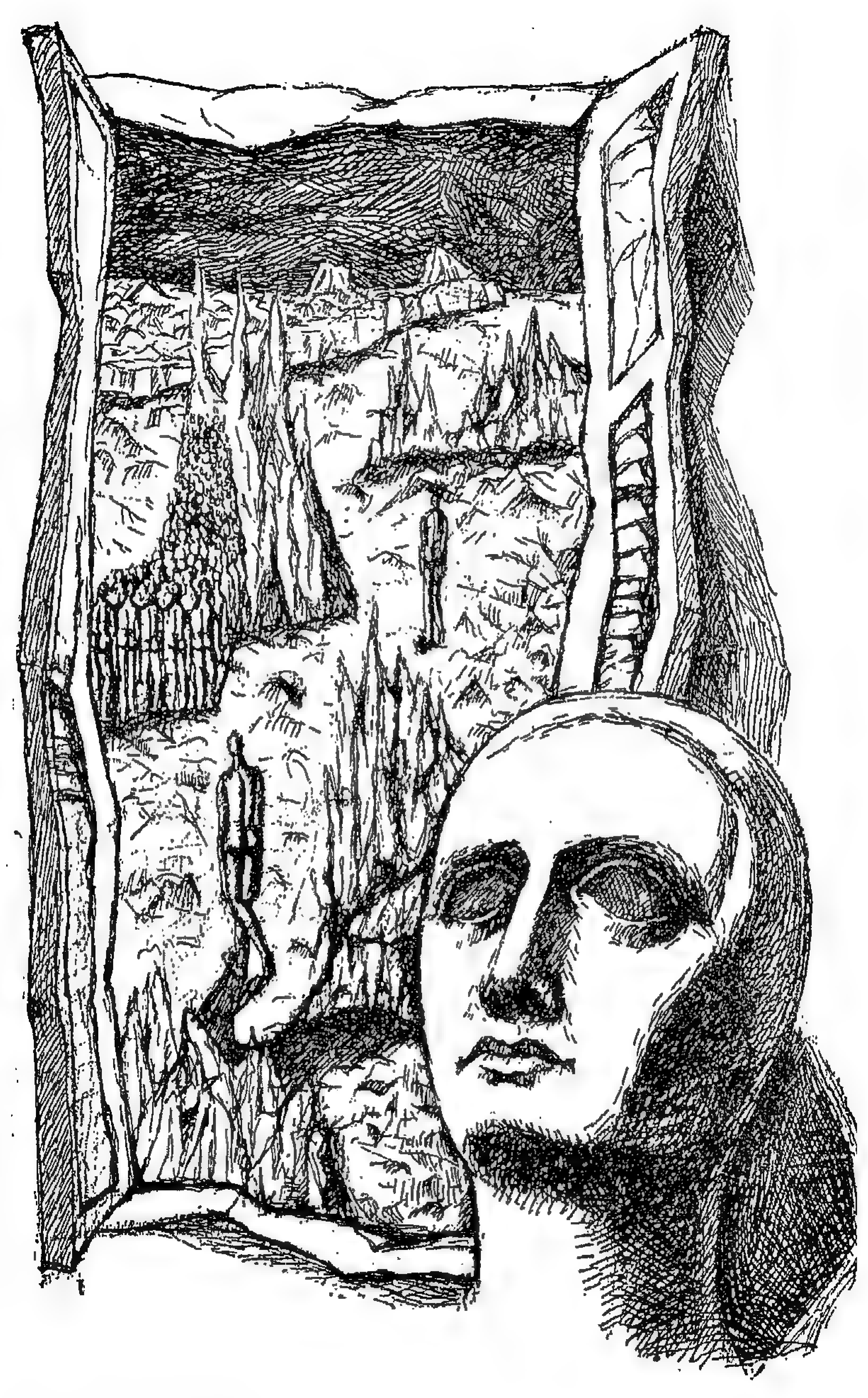
ولماذا لم يعد يريد ..

كده ..

مش عاوز ..

إن مجرد إرادته سبب .. فى غير حاجة إلى سبب ..

وهذه الحرية .. وهذا التملص من الـ .. لابد .. واللازم .. والضرورى .. لا يوجد فى أى مكان فى الدنيا إلا فى الإنسان .. إنه وحده الذى يخلق نفسه بنفسه .. ويولد كل يوم ميلاداً جديداً .. ويتطور ويتكون .. وتتغير شخصيته وتدخل عليها التعديلات والتبديلات ..



إن إرادته تدخل على كل لحظة فتعدلها وتخل بأى تعاقد طالما أنها أرادت هذا الإخلال ..

ولهذا يستحيل التنبؤ .. لأن كل لحظة تبدو جديدة غير متعاقدة بسابقتها .

لا شيء يحول بين الإنسان وبين أن يضمر شيئاً فى نفسه ..

إنه المخلوق الوحيد الذى يملك ناصية أحلامه ..

* * *

ولكن هذه الحرية البكر الطليقة فى الداخل ما تلبث أن تصطدم بالعالم حينما تحتك به لأول مرة فى لحظة الفعل :

إن رغبتنا تظل حرة طالما هى فى الضمير والنية ..

نستطيع أن نرغب أى رغبة .. ونحلم أى حلم .. ونتمنى أية أمنية .. ولكن المأساة تبدأ فى لحظة التنفيذ حينما تحاول رغباتنا أن تحقق نفسها فى الواقع .. فتصطدم بالقيود .. وأول قيد تصطدم به هو الجسد .. جسدنا نفسه الذى يحيط بنا مثل الجاكتة الجبس .. ويحاصرنا بالضرورات والحاجات ويطالبنا بالطعام والشراب ليعيش ويستمر ولا نجد مهرباً من تلبية هذه المطالب .. فنجرى خلف اللقمة ونلهث خلف الوظيفة ونضيع فى صراع التكسب ونفقد بعض حريتنا ..

وليس أمامنا حل غير هذا فرغباتنا لا تستطيع أن تعلن عن نفسها بدون جسد ..

وجسدنا هو أداة حريتنا .. وإن كان يقيد هذه الحرية فى نفس الوقت ..

وليس جسدنا وحده بل أجساد الآخرين أيضاً أدواتنا . . فنحن ننتفع بما يصنعه العامل وما يزرعه الفلاح وما يخترعه المخترع وما يكتبه الكاتب وكل هذه ثمار أجساد الآخرين وحرياتهم .

إن المجتمع أداة هائلة موضوعة فى خدمتنا بما فيه من بريد ومواصلات ونور ومياه وصناعات وعلوم ومعارف .

وحينما يركب أحدنا قطاراً فإنه يركب فى نفس الوقت على حرية جاهزة أعدها له آلاف العمال والمخترعين والمهندسين فى سنين تاريخية طويلة .. وهو يدفع فى مقابل هذا الكسب ضريبة من حريته .

وليس المجتمع وحده هو الذى يتقاضاه ضرائب .. ولكن الكون كله .. جاذبية الأرض .. وضغط الهواء .. ومياه المحيطات .. والغابات بحيواناتها وطيورها والسماء بكواكبها .. كلها تحاصره وتحاصر حريته وتطالبه بنوع من الوفاق معها

وهو بالوفاق يربح حريته دائماً ..

بالوفاق مع العالم يمتطيه كما يمتطى الجواد ..

فهو حينما يفطن إلى اتجاه الريح .. ويضع شراعه فى مواجهته يمتطى الريح ويسخره لخدمته .

وحينما يفطن إلى أن الخشب أخف من الماء .. ويصنع مركبا من الخشب .. يمتطى الماء .. وبالمثل حينما يفطن إلى نفع الناس ويسير فى اتجاههم ... يكسب الناس ويكسب معونتهم ..

إن المجتمع يضغط على الفرد وعلى حريته .. والدنيا تضغط على

الفرد . وعلى حريته .. ولكن العقل يستطيع دائماً أن يقلب هذا الضغط إلى مصلحة ومنفعة وحرية . . بأن يكتشف ببصيرته القوانين التى تربط الأشياء بعضها ببعض . .

* * *

إن الإنسان يعيش مضطرباً بين عالمين . . . عالم رغباته ونزواته وكلها حرة طائشة بلا حدود . . وعالم المادة حوله وهى جامدة محدودة مغلولة فى القوانين . .

وسبيله الوحيد هو معرفة هذه القوانين .

حريته لا تستطيع أن تشق طريقها بدون العلم . . إنها بدون العلم . . تكون مجرد رغبة مجنونة فى داخله . . مجرد نية . وحلم . وأمل سجين. مجرد حرية وجودية تنفع مادة لقصة أو قصيدة أو أغنية أو تمثال .. أو مغامرة . . أو جريمة قتل . . ولكنها لا تنفع لكسب حقيق واقعى.

إن الفرق بين العبودية والحرية هو خيط رفيع . خيط رفيع يرقص عليه الإنسان . . ويتأرجح .

إذا سقط فى داخل نفسه ضاع فى أحلام اليقظة والرؤيا والأمانى .

وإذا سقط فى العالم ضاع فى دوامة الزمن الآلى . . وجرفه الروتين والعرف والتقاليد . . وابتلعه المجتمع فى جوفه .

وإذا فتح عينيه ونظر إلى العالم حوله فإنه يستطيع النجاة بحريته ، ويستطيع أن يقفز على الحبل خطوات واسعة إلى الأمام . .

إن طريقه ضيق محفوف بالمخاطر . والموت يترصده من كل جانب .

إن عليه أن يدرس الواقع حوله بما فيه من منخفضات ومرتفعات ومطبات . . ويكتشف ما فيه من قوى . . . ويتعرف الطريق إلى قيادتها والاستفادة منها . .

إن الخيط الذى يسير عليه هو خيط ضيق من الواقع . . يحف به العالم من ناحية . . وتحف به رغباته الطائشة من ناحية أخرى . .

ولو دخل فى نفسه ولاذ برغباته وأحلامه وانطوى على ذاته فإنه يموت كما تموت الوردة التى تنفصل عن شجرتها . .

وإذا ذاب فى المجتمع وخضع للناس خضوع الشاة . . فإنه يموت ويفقد شخصيته . .

وحبل النجاة هو ذلك الخيط الرفيع . . حيث يحدث التصادم بين نفسه والعالم . . بين داخله وخارجه . . وحيث تلتحم رغباته بالدنيا . . مائة مرة كل يوم . .

حبل النجاة أن يكون ذاتياً موضوعياً فى نفس الوقت . أن تكون عينه مفتوحة على داخله . . واعية لما يجرى حوله . . وأن يتدفق نشاطه من هذه البطارية ذات القطبين على الدوام .

بهذا وحده يفوز بنفسه ، ويفوز بالعالم ، ويصبح إنسانا حرا . .

* * *

ولكن .. ماذا يفعل بهذه الحرية .. أنه يرتمى فى المستقبل ناشدا هدفاً ولذة ..

أنه يتطلع إلى لانهاية من الأحلام والأمنيات ..

اللذة الكبرى

لقد خلقت لكى أكون .. لكى أوجد كأعمق
ما يكون الوجود .. وهذه لذتى الكبرى

أنا أحمل فى قلبى الحب والأمل والخيال والأمانى التى لاتحد .. ولكنى فى نفس الوقت صغير محدود .. أخطو بمقدار وأتحرك بمقدار وأمرض وأتعب وأشيخ وأموت .. جسمى كالثوب القصير لا يغطينى.

أنا مشكلة ..

رغباتى أطول من ذراعى .. آمالى أسرع من ساقى .. حبى أكبر من قلبى .. خيالى أبعد من واقعى .. حلمى أبعد من إمكانى ..

أنا معضلة لا حل لها ..

أنا أصطنع الأهداف .. ولا أهداف هناك .. أحلم بالشهادة فإذا حصلت عليها تخطيتها .. تماماً كأنى لم أكن يوماً أتحرق إليها ... وعدت أحلم بشىء آخر .. هدف آخر .. وظيفة .. زوجة .. أولاد ..

شركة .. عمارة .. وكلها أهداف كاذبة لأنى حينما أبلغها أتخطاها وأنساها تماماً .. وأمضى .. إلى أين ؟ ..لا أحد يدرى . . ولاحتى أنا .. لأنه لا توجد بوصلة للمستقبل . . ولا علامات أسترشد بها إلى الطريق ..

لذتى .. حبى ... شغفى . . كلها علامات كاذبة . .

إن الطعام يبدو لى أحياناً لذة هائلة تربطنى إلى المائدة ، ولكنى ما ألبث أن أنسى هذه اللذة تماماً حينما أتذكر ميعادى مع حبيبتى . . فإذا كنت فناناً فأنا أنسى الاثنين لأستسلم للذة أخرى هي لذة خواطرى.. وخيالاتى . .

الأهداف الكبيرة تأكل الأهداف الصغيرة . . والأهداف الكبيرة لها أهداف أخرى أكبر منها تأكلها . . ولا يوجد مقياس سوى نزواتنا واهتمامنا وتعلقنا يفرق بين هذه الأهداف . . ويجعل بعضها أصغر ، وبعضها أكبر . .

الطريق يبدأ منا .. ويعود إلينا . .

نحن البوصلة .. ونحن الطريق .. ونحن البداية . . ونحن النهاية . . ونحن المشكلة . . .

أسخف سؤال يمكن أن تسأله لى هو لماذا خلقت . . لماذا جئت إلى الدنيا . . لماذا أنا موجود . . أى هدف هناك من خلقى . . وإيجادى ؟ . .

أى هدف . .

أسخف سؤال فى الدنيا . .

لامحل للسؤال عن هدف لوجودى .. لأنى أنا المشكلة الوحيدة القائمة . . وأنا الهدف الوحيد من وجودى . .أنا السبب والنتيجة . . والوسيلة والغاية فى وقت واحد . .

مهما خيل لى أنى أقيم هدفاً خارجياً أمامى وأجرى خلفه .. فالهدف دائما تخريج من وجودى ذاته .. وهو يتلاشى حينما أبلغه . . وينمو مكانه اهتمام جديد ونزوة جديدة . . وهدف جديد يخرج مرة أخرى من داخلى . . ومن آمالى وأحلامى وتصوراتى .. ومن روحى التى تجيش بالانفعال . . وتجيش بأشياء أخرى عديدة لا حصر لها . . أشياء لامتناهية . .

هدفى خمسون جنيهاً إيراداً شهرياً . . ولكن حينما أقبضها لا تكفينى .

هدفى أن أقرأ كتابا . . ولكنى حينما أفرغ منه أبدأ فى كتاب آخر . وآخر .

هدفى قبلة من شفتى حبيبتى ، فإذا حصلت عليها طلبت أكثر .. وإذا حصلت على كل جسدها طلبت زيادة .. وزيادة وزيادة .. لا يوقفنى إلا عجزى وتعبى .

هدفى أن أكون وزيراً . .

هدفى أن أكون زعيما . .

ثم لا يكفينى هذا . . أريد أن أخضع التاريخ .. أن أرسم خططاً . .

لسنوات عشر . . لا . . بل لمائة سنة . . لألف سنة . . بل لكل المستقبل .

هدفى أن أكون فيلسوفا . . أفهم فى الحياة . . وفى الموت . . وفى مابعد الموت .. وما وراء كل شىء . .

هدفى أن أكون فناناً . . أكتب الكلمة الجميلة . . وارسم الصورة الجميله . . وأغنى اللحن الجميل . . فإذا حصلت على مرادى طلبت ماهو أجمل . . ثم ماهو أجمل . . ثم لا نهاية لأهدافى . .

ما معنى هذا كله . .

معناه أنه لا توجد أهداف فى الحقيقة ولا نهايات . . معناه أنى أحمل فى قلبى إرادة لا نهائية ونزوة لانهائية . . ولكنها إرادة مسكينة تتخبط فى سروال ضيق من الجلد واللحم . . سروال لا يسمح لى إلا بالسير خطوة بخطوة . . جسد فان .. واقع ضيق لا يسمح لى إلا بحياة بالقسط لحظة بلحظة . .

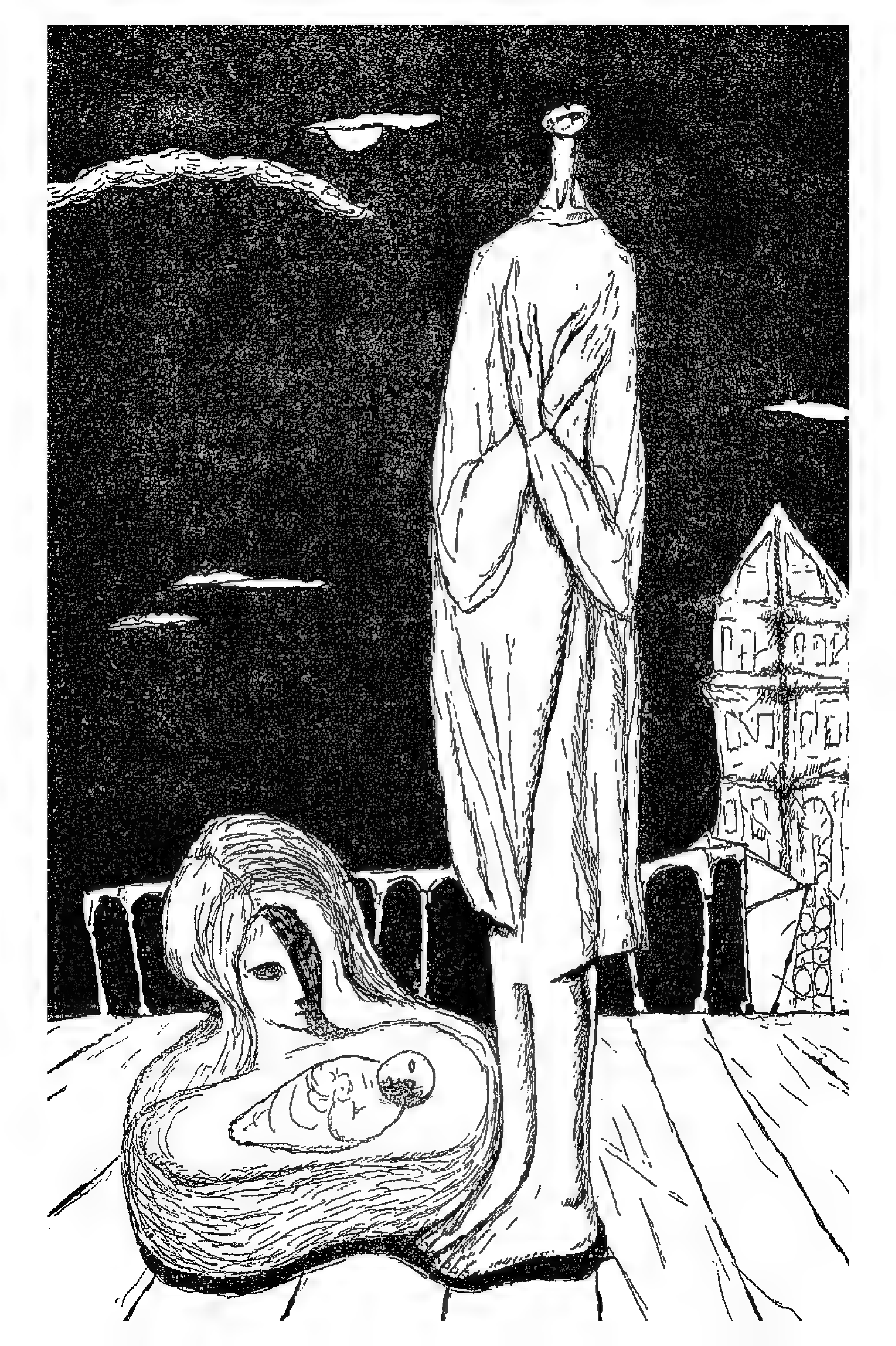
ولا مفر لى من تقسيط حياتى على أهداف . . ومن أن أحياها على دفعات . : تماماً كما أقول المعنى الذى أضمره فى قلبى . . على كلمات .

الأهداف هى وسيلتى لأتعامل مع الواقع وأحقق حياتى فى الدنيا . ولكنها ليست غايتى أبدا . .

أنا بلا غاية وبلا هدف . .

خلقت لكى أكون . . وهذه لذتى الكبرى ولا توجد لذة تفوقها .

وكل الأهداف وسائل لهذه اللذة . . كلما عظم هدفى ازداد وجودى عمقاً ..وازدادت لذتى تبعاً لهذا عمقاً . .



كل هدف كبير معناه شحذ عدد أكبر من مواهبى .. وحشد عدد أكبر من إمكانياتى .. ومعناه نزولى إلى الواقع بحمولة وجودى كله .. وهذه هى اللذة الكبرى التى تسعى إليها أهدافى ..

لا شك أن لذة انتصار نابليون على روسيا كانت فى نظره أشد من لذة التقائه بامرأة .. وأشد مليون مرة من لذته بطبق من المايونيز .. فقد كان معناها أن يحشد كل ذرة من انتباهه وأن يعيش كألف رجل كل لحظة ..

ألا يبدو سخيفاً أن تسأل نابليون بعد هذا .. لماذا خلقت .. لماذا جئت إلى الدنيا ..

إنه يجاوبك من قبره .. ويصرخ فيك من التاريخ ..

لقد خلقت لكى أكون .. لكى أوجد كأعمق ما يكون الوجود .. ولو قدر له أن يخرج من قبره .. لمضى يبحث عن ميدان يحارب فيه ويحقق فيه إرادته ..

إنها اللذة .. اللذة الكبرى .. لذة الحياة .. لذة الكيان الغامض المجهول الذى يعتمل فى داخل الإنسان .. وهو ينمو .. وينمو ..

الأكل لذة .. واللعب لذة .. والحب لذة .. والضحك لذة .. والبكاء لذة ..

وما سر التأوه ..

ما سر تنغيم الألم .. وتطريبه هكذا فى آهات .. لأننا نمضغه كما نمضغ اللادن ..

* * *

والأهداف جميعها باطنة فينا . . خارجة منا ومن أحلامنا . .

كيف تكون سنبلة القمح هى الهدف من حبة القمح . والسنبلة موجودة بكل تفاصيلها فى جنين القمحة من البداية قبل زراعتها . .

ونحن بحياتنا فى هذه اللحظة نحتوى على كل شىء . . حتى على بذور مستقبلنا وإمكانياته . .

وما المجتمع سوى أرض يتم فيها زرعنا كأفراد لتثمر إمكانيتنا؟

إنه وسيلة حياة . . ووسيلة تعامل ووسيلة ممارسة لهذه اللذة الكبرى . . نستعين به كأفراد على تحقيق ذواتنا . . وطرح ثمارنا . . والتمتع بالحياة . .

والمجتمع العظيم هو المجتمع الذى يفسح لنا الظروف لكى نتنفس . ونتكلم . . ونعيش . . ونبدع . . ونعبر عن وجودنا . .

إنه المجتمع الذى يطوع كل أهدافه لحريتنا وحياتنا . . والشركة التعاونية التى نساهم فيها لنعيش أحسن وأوفر أمناً وحرية ولذة . .

* * *

هذه روح الإنسان . .

فما هى حقيقة مادته وترابه . .

وماهى حقيقة الرحلةالتى يقطع نصفها بالنوم . . ويقطعها كلها بالموت فيصبح ترابا . .



النوم

أنت حينما تنام . . تتحول إلى شجرة

هناك زر كهربائى فى المخ ينطفىء فى لحظة النوم .. فيسود الظلام وتسود الغيبوبة .. وتمر الشخصية بحالة غرق ويتحول الإنسان إلى شجرة إلى نبات بدائى . . إلى شىء تستمر فيه الحياة على شكل وظائف . دورة الدم تجرى .. التنفس يتردد . . الخلايا تفرز .. الأمعاء تهضم .. كل هذا يتم بطريقة تلقائية والجسد ممدد بلا حراك .. تماماً مثل نبات مغروس فى الأرض تجرى فيه العصارة وتنمو الخلايا وتتنفس من أكسوجين الجو ..

إنها لحظة غريبة يسقط فيها الجسد فى هوة التعب والعجز .. ويستحيل عليه التعبير عن روحه ومعنوياته الراقية فيأخذ أجازة .. ويعود ملايين السنين إلى الوراء .. ليعيش بطريقة بدائية كما كان يعيش النبات .. حياة مريحة لا تكلف جهداً ..

إن سر الموت يكمن فى لغز النوم .. لأن النوم هو نصف الطريق إلى

الموت ، نصف الإنسان الراقى يموت أثناء النوم . . شخصيته تموت . . وعقله يموت .. ويتحول إلى كائن منحط مثل الأسفنج والطحاب يتنفس وينمو بلا وعى ..

إنه يقطع نصف الطريق إلى التراب . ويعـــود مليـون سنة إلى الخلف ..

يعود عقله الواعى إلى ينبوعه الباطن .. وتعود شخصيته الواعية إلى ينبوعها الطبيعى الذى يعمل فى غيبوبة كما تعمل العصارة فى لحـــاء الشجر .. ويلتقى الإنسان بخاماته الطبيعية .. بجسده وترابه ومادته والجزء اللاواعى من وجوده ..

إن الشعراء يقولون أن لحظات النهار سطحية لأن ألوان النهار البراقة تخطف الأشياء .. ولحظات الليل عميقة لأن الليل يهتك هذا الستار البراق ويفك أغلال الانتباه فيغوص فى أعماق الأشياء .

وأنا أقول إن لحظة النعاس هى أعمق اللحظات لأنها تهتك ستاراً آخر هو ستار الألفة .

النعاس يمحو الألفة بينى وبين الأشياء فتبدو غريبة مدهشة .. مما يدعونى أحياناً إلى التساؤل .. وأنا أنظر حولى فى غرفة نومى بين النوم واليقظة .. وأهمس : أنا فين ؟ ..

إنى لا أتعرف على سريرى .. ولا أتعرف على دولابى .. وتسقط الألفة تماماً بينى وبين غرفتى فتبدو غريبة ..

وهـــذه اللحظة لحظة عميقة .. لأن العقل يخرج فيها من إطار



ظروفه ويتحرر من الألفة والتعود والأحكام العادية وينظر حوله من جديد .. ليصدر أحكاماً جديدة أكثر تحرراً .. وإلهاماً .

والنبي كان يتلقى إلهامه فى هذه اللحظة .. وكان الوحى يأتيه بين النعاس والغيبوبة ..

ونيوتن اكتشف قانون الجاذبية فى هذه اللحظة .. وهو ينظر بعين نعسانة إلى تفاحة تسقط من الشجرة .. لقد أحس أن سقوط التفاحة أمر غير مألوف .. وأن التفاحة لا يمكن أن تسقط على الأرض .. وإنما الأرض هى التى يجب أن تجذبها ..

وكل المخترعين والمؤلفين والشعراء والمفكرين .. تفتقت أذهانهم فى هذه اللحظة .. لأنها اللحظة الحرجة التى سقط فيها المألوف .. والمعتاد.. ولمعت الحياة بالدهشة . وبرق العقل بأسئلة جديدة تماماً .. لم يكن ليلقيها لو كان فى كامل يقظته .. وكامل ارتباطه بالأشياء .

إنها لحظة الرؤيا .. والإسراء ..

والفرق بين النبي .. والعبقرى .. فى تلك اللحظة هى مساحة الرؤيا التى تتكشف لكل واحد .

النبي يشبه جهاز تليفزيون به مليون صمام .. مساحة الرؤيا فيه شاسعة .. وقدرة استقباله كبيرة .. فهو يستطيع أن يستقبل صوراً من المريخ على شاشة بانورامية عريضة .

والعبقرى هو جهاز ترانزيستور صغير يكاد يستمع إلى محطة القاهرة بصعوبة ..

ولكن الإثنين يسبحان جنباً إلى جنب في بحر الحقائق .

* * *

والنوم في حقيقته يقظة عميقة . تتيقظ فيه الوظائف الأصلية . . فتنتظم دورة الدم . . وينتظم التنفس . . وينتظم الهضم . . والامتصاص والإفراز . . ويتوقف الهدم . . ويبدأ النمو والبناء . . ويقل الاحتراق الذي يحدث في النهار .

وتتيقظ رغبات أكثر أصالة من رغبات النهار . .

الغرائز كلها تتيقظ وتعمل . . وتنشر نشاطها في الأحلام . وتفصح عن نزواتها على مسرح رمزى مبهم لا يستطيع فك رموزه وطلاسمه إلا صاحبه ..

ويدخل النوم بعد هذا في مرحلة أعمق .. هي النوم الثقيل .. وهي مرحلة تخلو من الإحساس تماماً .. وتخلو من الأحلام أيضاً .. مرحلة من الظلام .. والعدم . . وهوة بعيدة الغور . . ومساحة مشطوبة من الحياة . . ليس فيها وعى ولا زمن . . ولا مكان . العشر ساعات تمر فيها كلمح الطرف بين غمضـــة العين وانتباهتها .. بدون إحساس بالمدة .. وكأن خيط العمر قد انقطع فجأة .. كما يحدث حينما نقطع أشرطة التسجيل ثم نوصلها من جديد ليستمر سياق الكلام كما نريد .

السياق الزمنى في النوم غريب .

إنه زمن آخر تماماً غير زمن الساعة .. فالحلم قد يحتوى على

أحداث سنة كاملة بتفاصيلها من حب إلى زواج إلى طلاق إلى جريمة ومع هذا لا يستغرق بحساب الساعة أكثر من ثانية .

والعكس يحدث أحياناً فتمر على النائم عشر ساعات وفى ظنه أن عقرب الساعة لم يتحرك إلا دقائق معدودة ..

الزمن يتخلص من قيود الساعة أثناء النوم .. ويخضع لتقدير آخر هو تقدير المخيلة التى توسع وتضيق فيــه على حسب ازدحامها بالحوادث والرغبات ..

إنه من صناعة النائم وخلقه .. فهو ذاتى صرف ..

النائم كالفنان الذى يؤلف قصة .. يخلق زمن القصة كما يريد .. ويعيش فى قمقم خرافى من أوهامه . . يتمطأ فيه ويصرخ بالرغبة التى يحبها . فى حرية مطلقة تصل إلى حد العبث .

ومعظم أحلامنا عبث فى عبث . . وأمنيات مستحيلة . . ولكننا نعيشها كما نريدها ونحن نائمين . .

* * *

والنوم أرخص أنواع الحياة من حيث الكلفة . . فمقدار السكر والاكسوجين الذى يحتاجه النائم ليستمر فى الحياة أقل بكثير من المقدار الذى يحتاجه فى اليقظة .

والإنسان الذى يعيش مائة سنة بين نوم ويقظة يستطيع أن يعيش ثلاثمائة سنة إذا عمل حسابه أن ينامها كلها .

* * *

ومادة النوم رخيصة .. لأن الإنسان يقترب فيه من التراب .. ويعود إلى الآلية الكيميائية المتأصلة فى خلاياه من بداية الحياة ..

كيميا الحياة

بين الحياة والموت .. خيط رفيع .

حينما دبت الحياة على مسرح الدنيا منذ ملايين السنين .. كان المسرح يختلف كثيراً عن حاله الآن .. كانت الأرض ساخنة والجو مثقلا بالبخار .. ولم يكن الأكسجين بهذه الكثرة وإنما كان نادراً .. وكان الغاز المنتشر بكثرة هو الإيدروجين والنوشادر والميثان وأول أكسيد الكربون .. وكان ومض البرق وقرقعة الرعد والضوء فوق البنفسجي والإشعاع الذرى والشحنات الكهربائية العالية لا تنقطع .. وكانت المياه تغمر مساحات واسعة فى برك ضحلة .. ولم تكن المياه صافية رائقة يطفو عليها الطحلب الأخضر كمياه الغدران الآن .. وإنما كانت مياه عكرة كثيفة كالحساء مليئة بأملاح الفسفور والكالسيوم والصوديوم والبوتاسيوم والحديد والكبريت ..

فى هذا المسرح الكيميائى النشط .. بدأت الحياة .. ولهذا لابد لنا

أن نتبحر قليلا فى الكيمياء .. ولابد للقارىء أن يتحمل معنا عناء رحلة صعبة فى مجاهل علم الكيمياء .. إذا أراد أن يعرف سر وجوده ..

* * *

استطاعت المعامل أن تثبت أن مادة الحياة واحدة تقريبا فى كل الكائنات الحية .. وأن الفوارق بين تركيب لحم الحمار ولحم البنى آدم ولحم الحشرة .. فوارق طفيفة لا تذكر .. وأن كل المواد التى تتألف منها البنية الحية لاتخرج عن كونها سكريات ونشويات ودهنيات وبروتينات .

وأثبتت المعامل أيضاً أن هذه المواد جميعها هى تعقيدات مختلفة لمادة واحدة هى الإيدروكربون .. كل المواد الحية مشتقات من مادة هيدروكربونية .. من غاز الميثان .. وهو غاز يتألف من الكربون والإيدروجين .. فما هو الشيء السحرى الذى جعل هذه المادة هى المادة المختارة لنشأة الحياة .

السر أن هذه المادة قلقة غير مستقرة .. غير مشبعة .. فيها قابلية لانهائية للارتباط بعدد لانهائى من المركبات والمبادلة عليها بذراتها فى كل وقت ..

وقد ثبت أن المواد المستقرة التى يسمونها فى الكيمياء المواد النبيلة كالذهب والبلاتين وغاز الهليوم والأرجون والكريتون .. كل هذه المواد ظلت مواد عاطلة خاملة مثل الأمراء الخاملين .. بدأت وانتهت على حالها دون أن تعطى إمكانيات جديدة .. والسبب أن ذراتها مشبعة

متوازنة مستقرة لدرجة الموت .. ولهذا لم يدخل أى واحد من هذه العناصر فى تركيب الجسم الحى . وإنما اختارت الحياة مادة واحدة بعينها شديدة القلق ناقصة غير مشبعة كثيرة الانفكاك والارتباط بالمواد حولها لتكون مستقرا لها .. هى مادة الكربون لأنها مستودع لطاقة كيماوية لانهائية . . ومحل لتفاعلات لا آخر لها ..

إنها هى ذاتها فيها صفات الحياة .. الفاعلية والتحول والتكاثر والتعقد .

إن مفتاح الحياة هو .. الكربون .. لأنه مادة جائعة غير مشبعة تنقصها أربعة الكترونات فى مدارها الذرى لتصل إلى الراحة والتوازن .. ولهذا فهى دائماً تدخل فى علاقات وتفاعلات محاولة الوصول إلى هذا التوازن .. وتكون نتيجة هذه التفاعلات متتاليات كيمائية لاحصر لها .. تبدأ من غاز الميثان . . الهيدروكربون . . إلى المواد الكربوهيدراتية كالسكريات والنشويات .. إلى الجلسرين والدهون .. إلى البروتينات ..

كل هذه المتتالية الحية هى تعقيد واشتقاق من مادة واحدة هى الكربون أو الفحم . .

وقد قام ميللر بتقليد ظروف الحياة الأولى فى المعمل فأحدث تفريغاً كهربائيا فى جو خال من الأكسجين وبه ميثان ونشادر وبخار ماء .. فكانت النتيجة مجموعة مدهشة من المركبات العضوية تشتمل على الأحماض الأمينية .. وهى نواة البروتينات ..

واختيار الحياة لعنصر الكربون بالذات لتتخذ منه الطوب الذى

تبنى به معمارها — اختيار فيه حكمة .. لأن الكربون عنصر نشيط .. إحتمالاته الكيمائية لاحصر لها .. وقد ثبت بالحساب أن الجزىء الذى يحتوى على عشرين ذرة من الكربون يمكنه أن يعطى مليون صورة لتركيبات جديدة .

إنه عنصر مثل الحياة مفتوح على آفاق لانهائية .. ذرة تزيد وذرة تنقص فى الميثان تؤدى إلى تركيب الكلوروفورم .. الكحول .. النفتالين — البنزول .. الفينول .. الخ .. الخ — ملايين المواد الممكنة .

وكل مادة حية لها تعقيدات .

سكر القصب وسكر الفاكهة وسكر الشعير كلها تعقيدات لسكر العنب البسيط الجلوكوز .

وزيت الزيتون وزيت بذرة القطن وزيت الفول السودانى وزيت السمك وشحم الخنزير وشحم البقر .. كلها تعقيدات للجليسرين والأحماض الدهنية ..

ومادة الأظافر ومادة الجلد ومادة الشعر ومادة العظم والغضاريف والعضلات والأعصاب والدم والريش والأجنحة وقشر الحشرات وزلال البيض والهرمونات .. كلها تعقيدات واشتقاقات مختلفة من المادة البروتينية ..

وأنواع البروتينات فى جسم الإنسان تبلغ مائة ألف نوع ..

والسر فى هذا التنوع الواسع هو فى طبيعة المادة الحية نفسها ..

أن البروتينات التى تتألف من ٢٤ حامض أمينى يمكنها أن تعطى

إمكانيات مثل التى تعطيها حروف الهجاء الـ ٢٦ . . يمكنها أن تعطى الوف الكلمات وملايين الجمل . . كل جملة تختلف عن الأخرى لأنه تحت يدها ٢٤ حرفا كيميائيا تصنع منها تباديل وتوافيق . .

وأهم مادة حية هى البروتين لأن جزىء البروتين ثقيل فيه أكثر من خمسة آلاف ذرة فى المتوسط . . متعدد الاحتمالات لدرجة مذهلة .

وذرات المادة البروتينية لا تعطى فقط إمكانيات متعددة للتوليف الكيميائى . . ولكنها أيضاً فى التحامها تصنع أشكالا متعددة من الالتحام . فهى تكون ملضومة أحيانا على شكل مجمعات كروية وأحيانا على شكل سلاسل حلزونية . . وأحياناً على شكل حبال مبرومة كأسلاك التلغراف وفى كل مرة تؤدى إلى شكل تركيبى جديد فى وظيفته وطعمه وملمسه مع أن التركيب واحد فى الكل . .

* * *

والسؤال الثانى الذى خطر ببال الكيميائيين هو الماء . . سر الماء . .

لماذا تبدو الحياة كأنها منقوعة كلها فى الماء .

لماذا يؤلف الماء معظم النسيج الحى . . ولماذا يدخل كشرط فى كل بنية حية . .

لقد تعودنا أن نتعلم فى المدارس أن الماء سائل لا طعم له ولا لون ولا رائحة . . وهذه أكذوبة كبرى . . لأن الماء هو أكثر السوائل نشاطاً لأن تركيبه هو الآخر تركيب قلق غير مستقر غير مشبع .

أثبت الفحص الذرى للماء أن ذرة الأيدروجين فى جزيئه عارية بدون الكترونات . . ولهذا كانت شديدة الشوق إلى استعارة

الكترونات من أى مادة تلامسها . . وهذا سر قدرة الماء على إذابة المواد والتفاعل معها وتحليلها إلى أيوناتها .

الماء ليس خاملا . . وليس عديم الطعم . . عديم النشاط . .

الماء توازنه الكهربائى ناقص . . ولهذا فهو يروى من العطش حينما نشربه . . لأنه يتفاعل مع أنسجة الجسم . .

إن له طعما حيويا . .

بدليل أن الماء الثقيل المشبع لا يروى . . وإذا شربت منه صفيحة فإنك لابد هالك عطشاً .

والماء له فعل آخر . . إنه يحول مادة البروتين إلى كتل عروية جيلاتينية فى حالة تماسك كهربائى لا هو بالتجبن ولا هو بالتختر . . وبهذا يصنع خامة حية شديدة الحساسية لتقلبات البيئة . . وهذه صفة أساسية فى الحياة . . شدة الحساسية وعدم الثبات والقلق والتغير والتحول .

هذا البحث يثبت لنا فى النهاية أن مادة الحياة فيها حياة . . فيها صفات الحياة . . وأن نشأة الحياة من مركبات الكربون والماء لم تكن مصادفة . . وأن الحياة لو لم تنشأ من الكربون لنشأت من الكربون . . وأن الاحتمال أكبر من أن يكون مجرد خبطة عشوائية . .

إنه ضرورة . .

وهذا يجعلنا نسأل . . ماهى المادة . .

وما حقيقتها ..!!؟

التراب

إن ذرة التراب ليست شيئاً تافها ..
إن فيها حركة .. وفيها نبض ..

هل المادة شيء جامد فعلا ؟!! ..

هل هي كتلة من السكون والهمود والموت .. عديمة النشاط والفاعلية . .

لا . .

إن هذه كذبة . .

وكلمة جماد نفسها أكبر كذبة . .

إن الجماد في حقيقته غير جامد ولا حتى سائل .. إنه مخلخل من داخله ومؤلف من منظومات هائلة من الذرات والجزيئات تسبح فى فراغ أثيرى . .

والجزىء هو معمار من الذرات . .

والذرة نفسها معمار جميل من جسيمات صغيرة نووية تدور حولها كهارب غاية فى الصغر منتظمة فى أفلاك .

والذرات والجزيئات مترابطة مع بعضها بقوانين من الجذب والتنافر تشدها إلى بعضها دون أن تسمح لها بأن تصطدم ببعضها وتذوب وتفقد شكلها وشخصيتها . .

إنها كالشمس ومنظومتها الكبرى من الأقمار والكواكب .. تترابط بالجاذبية .. ولكنها جاذبية لا تزيد إلى القدر الذى يؤدى إلى تلاحمها وفنائها فى بعضها .. وإنما هى جاذبية يعادلها تنافر يؤدى إلى احتفاظ هذه الأجرام السماوية بأشكالها وشخصياتها ..

وهى تدور حول بعضها .. كما تدور كهارب الذرات . . وكما يدور كل شىء فى العالم حيا وميتاً .. جامداً وسائلا وغازياً ..

ولا فرق بين جامد وسائل وغازى ، إلا فى سرعة الدوران .. السائل ذراته أسرع .. والغاز ذراته أسرع جدا .. ولذلك تتفكك جدا وتصبح هباء منثورا .. أو بالتعبير الساذج .. هواء ..

إن ما يبدو من شكل التراب على أنه شىء عشوائى فوضوى غير مرتب بلا شكل ولا نظام .. هو مظهر غير صحيح .. فالتراب فى أدق دقائقه فيه نظام .. وله شكل .. وله ترتيب وتفصيل .. وفيه حركة مبثوثة فى ذراته ..

وكل شىء فى الكون له صورة ونظام وتفصيل وفيه نبض . .

وهنا يبدو الفاصل بين الحى والميت فاصل رفيع . . وهو يزداد نحولا كلما نظرنا بتعمق فى طبيعة المادة . .

فالمادة ليست فى حالة حركة فقط . . وإنما هى فى حالة حركة هادفة أيضاً . .

إن ذرات الكربون الغير مشبعة تتحرك هادفة نحو التشبع والتوازن وتعقد علاقات وتراكيب وتفاعلات مع المواد الأخرى بهذا القصد . .

ومعنى هذا أن تركيب المادة فيه نظام وحركة وهدف . .

وليس هذا فقط بل إن تكوينات المادة فيها طابع الشخصية والتفرد أحياناً . . وهى تلتزم طابعها وتحافظ عليه . . فمادة كبريتات النحاس تنظم نفسها فى بللورات محددة ذات شكل محدد وهى تجدد نفسها فى المحاليل بنفس الشكل دائماً . . وهى تنمو فى المحاليل وإذا قطعت بللورة منها إلى جزءين فان كل جزء ينمو محتفظاً بطابعه .

وأغلب المواد العضوية والغير عضوية لها بللورات مميزة تعرف بها كما يعرف الأشخاص ببصمات أصابعهم . .

الحديد له بللورات . . والنيكل له بللورات . . والسليكا لها بللورات . . والصخور من كل نوع لها بللورات . .

والذى شاهد هذه البللورات تحت الميكروسكوب يشهد أن فيها جمالا هندسيا قد استوقفه طويلا . .

ومعنى هذا أن المادة الجامدة الميتة . . فيها حركة . . واستهداف نحو التوازن . . والنظام . . والجمال . . والتفرد والتبلور . .

وهذه الصفات تكسر السد القائم بين الحياة والموت . . وتكشف عن جرثومة الحياة فى المادة الجامدة الميتة . .

إنها لا تصبح مادة فارغة مهوشة . . وإنما تصبح منظومة لها صورة .

والفرق بين الحياة والموت يصبح فارقاً فى الدرجة . . فارقا فى درجة التعقيد . . وفى درجة التركيب . . وفى درجة الانتظام فى صور متفردة.

إن منظومة الحياة هى منظومة غاية فى تعقد التركيب وغاية فى التخصص.

ولكن إمكانيات هذه الحياة الرفيعة المتخصصة باطنة فى المادة ..

ولا يعنى هذا أن الحى ميت . . والميت حى . . وإنما يعنى أن الصلة غير مقطوعة بين المادة الحية والميتة . . يعنى أن العالم متدامج فى وحدة منبثق من أصل واحد وطبيعة واحدة يعنى أن الروح مبثوثة فيه كله . . والعقل باطن فى كل تضاعيفه . . بشكل جعله كله مصوراً فى تراكيب وأنماط وقوالب وطرز فيها نظام وقانون وجمال . . ومهما بلغت الفروق بين هذه القوالب والطرز والأنماط الحية والميتة . . فإن التعمق فى فهمها يردها جميعاً إلى أصلها الواحد وجذعها المشترك الذى انبثقت منه . . إنه يكشف عن تشابهها جميعاً . . ووحدتها الجوهرية .

إن الكون يمت لبعضه بصلة القرابة .

نحن والشمس والقمر والثعبان والميكروب أولاد عمومة واحدة . .

وحينما كشف داروين عن تأصل الأنواع جميعها فى نظريته عن التطور . . ضحك عليه الناس . . كيف يكون القرد والإنسان أولاد عمومة واحدة .

ولكن داروين برهن بالدراسة التشريحية أن المسألة ليست نكتة وأن التركيب التشريحى والسلوك الوظيفى للحيوانات والنباتات والأحياء جميعها يسلكها فى عقد عائلى واحد .

وداروين لم يكن يحلم أنه بعد أن يموت ويشبع موتاً سوف تستجد براهين أكثر خطراً من براهينه عن تأصل الأنواع . .

ولكن هذا هو ما حدث . . فنى المجال الكيميائى ثبت أن كل الأحياء ذوات نسيج تركيبي واحد . . كلها منظومات كربونية . .

وثبت أيضاً أنها تحمل شبهاً تفصيلياً أكثر دقة . . فجميعها مؤلفة من جزيئات ذات ترتيب يسارى . .

ثم كشفت الدراسة التفصيلية للذرة عن تشابهات أعمق فى الكون كله . . أحيائه وأمواته . . فالكون كله منظوم نابض هادف فيه جمال وقانون بديع . .

وبهذا امتدت صلة القرابة التى كشفها داروين بين الأحياء فاشتملت على الأموات أيضاً وسلكت الكون كله فى وحدة واحدة . . وجوهر واحد . . وأصبح الفارق بين شكسبير وهو يبدع أشعاره وبين المحار وهو يبدع صدفته وبين المادة الجامدة وهى تبدع بللورانها الهندسية . . فارقاً فى الدرجة . .

* * *

الكون هرم يتربع الإنسان على قمته . . ولكن فى كل حجر من حجارة الهرم مرحلة من هذا النظام البديع الذى كان تتويجه النهائى الإنسان .

وهو تتويج مؤقت . . لأن الوجود دائب على الإبداع وسوف يعلو إلى ماهو أكثر تفوقاً ونظاماً وروحاً من الإنسان . .

إنى حيثما أدرت بصرى فى الكون من أصغر ذراته إلى أضخم شموسه ومن أدنى ميكروباته إلى أسمى مخلوقاته .. ومن ترابه إلى ذهبه وماساته ولآلئه .. وجدت النظام .. والجمال .

إن الله متجل بذاته فى الكون كله ..

* * *

رأس النخلة

حتى الوردة فيها عقل ..

اسمعوا . . هذه ليست نكتة . .

إن الوردة فيها عقل . .

وسنبلة القمح فيها عقل . .

وشجرة البلوط لها عقل . . وإن كان عقلا تخيناً مثل جذعها التخين .

إن حركة زهرة عباد الشمس وهى تلوى عنقها لتتجه نحو الشمس. لا تختلف كثيراً عن حركة النحلة وهى تطير محلقة إلى الحقل لتجمع العسل : . ولا عن حركة الإنسان الواعية العاقلة وهو يطير ليقتحم المخاطر مستهدفا رسالة سامية . .

أن بين الثلاثة ترابطا حيوياً .

أن الثلاثة منظومة متصلة الحلقات الفارق بينها فارق فى الدرجة فقط ..

أن حركة زهرة عباد الشمس فى بساطتها . . عقل . . فما هو العقل..

أنه قدرة تصرف وتكيف بالبيئة ..

أنه فى كلمات قليلة بسيطة . . القدرة على اتخاذ موقف انتقائى أكثر ملاءمة للحياة فى كل لحظة . . والزهرة حينما تلوى أوراقها نحو الضوء تتخذ موقفاً انتقائياً أكثر ملاءمة لحياتها . . انها تتحرك حركة عاقلة . .

ومعنى هذا أن العقل ليس شيئاً جديداً فى الإنسان . . أنه فى الطبيعة الحية كلها . .

كل الفرق أن الإنسان لديه وسائل أكثر يتصرف بها ويحتال بها على بلوغ أهدافه . .

الإنسان بحكم كونه مخلوقاً معقداً يملك أجهزة متعددة كل منها على درجة فائقة من التخصص . . فهو يملك يدين فيهما عشرة أصابع . . ويملك لساناً ناطقاً . . ويملك عينين مبصرتين . . وأذنين حادتين . . وبشرة حساسة . . وأنفاً شماماً . . وكل هذه الأجهزة فى خدمة عقله . .

الإنسان حيوان إقطاعى عنده عشرة آلاف فدان من المواهب وعمارات من الأعصاب والحواس المرهفة . .

وهو لهذا ظلم نفسه وظلم غيره من المخلوقات حينما اعتبر نفسه الوحيد العاقل بينهما . . وهذه خرافة إقطاعية غير صحيحة . .

العقل باطن كامن فى كل الطبيعة الحية . .

ومنذ أن نبضت الحياة فى الأميبا الحقيرة ذات الخلية الواحدة . . وحركة هذه الأميبا فيها كل الحذر والتلصص والخبث وسوء النية التى فى الإنسان . . لا جديد فى الإنسان . . وإنما هناك تطور فقط .

* * *

والنفس . .

ما هى النفس . .

ما هى الغرائز..

إنها الحوافز البدائية التى كانت تحفز الحيوان ليسعى فى حياته ومعاشه ..

الجوع الذى يحفزه إلى الطعام .. والعطش الذى يحفزه إلى الشراب.. والجنس الذى يحفزه إلى التلاقح والتكاثر ..

وهى نفس الحوافز التى نشأت منها الحوافز العصبية المتعددة فى الإنسان.. الطمع والخوف والجزع والغضب والكراهية والحب .. وهى مثلها .. مجموعة إشعارات وإنذارات عصبية عن حاجات البدن الملحة الضرورية

وعيب فرويد أنه وقف عند هذه الإشعارات والغرائز والحوافز واعتبرها مفتاح شخصية الإنسان ومفتاح سر الحياة ولغزها . .

ولكن الحقيقة أنه لا الغرائز النفسية . . ولا حتى المنطق العقلى . . يمكن أن يصلح مفتاحاً لسر الحياة . .

الحياة لا يمكن تفسيرها بأنها رد فعل غريزى لطلب الطعام والجنس، ولا يمكن تفسيرها بأنها تصرف منطقى للتكيف بالظروف .

هذه صفات فى الطبيعة الحية .. ولكنها ليست مفتاحا لسرها . .

الحياة ليست محفوزة من الخلف.. وليست منخوسة من ورائها بمنخس الغرائز . . وإنما هى واثبة متطلعة إلى الأمام بفطرة إرشادية عالية وبعاطفة مبثوثة فى خلاياها وأعصابها وقلبها.

الحياة ليست مدفوعة من الماضى . . ولكنها مرتمية فى المستقبل بفطرة توجيهية باطنة فيها . .

الحياة ليست مقهورة بقضاء محتوم يدفعها من خلفها . . وإنما هى رشيده مختارة بصيرة تنتقى لنفسها على الدوام ناشدة هدفاً فى الغد .

أن فيها مثيرات باطنة ترفع بها فوق نفسها . . أنها تتحرك بكامل صحتها وشبعها طالبة مستوى فوق مستوى حياتها الروتينى المتكرر المتشابه .

إن حب الجمال والخير والحق هو فى النهاية أحد المثيرات والمغريات المتأصلة فى الصميم الحى . . وليس هناك فارق كبير بين قدرة شكسبير على إفراز الأشعار . . وقدرة المحار على إفراز اللآلئ . . وقدرة خلايا الفراش على رسم الزخارف البديعة الجميلة على واجهة أجنحته . .

إن الفراش لم يكن بحاجة حيوية ملحة إلى رسم هذه الزخارف . . فالأجنحة كان باستطاعتها أن تقوم بوظيفتها بكفاية ومهارة دون أن تكون منقوشة . . فما السر فى نقشها . .

السر هو نفس السر الذى جعل شكسبير يتغنى بالشعر . . إنه ليس أكل العيش وإنما هى مثيرات الجمال . . ومغريات الإبداع فى طبيعة شكسبير . . وفى طبيعة الفراش . . وفى الطبيعة الحية كلها . .

فى جرثومة الخلية الأولى بذرة كل هذه الأسرار الجمالية . .

الخلية التى بدأت حياتها بنشدان درجة معينة من الحرارة والجو والغذاء ملائمة لانتعاشها وتكاثرها كانت تضمر فى جوفها غايات أبعد وهى ما لبثت بعد أن ملكت ناصية حياتها فى عقل الإنسان أن

أفصحت عن هذه الغايات البعيدة فبدأت تنشد الجمال والحق والخير والعدل والسلام .

إن المثل العليا تحت الجلد ..

والقيم الرفيعة فى نسيج البروتوبلازم ..

وتفسير الإنسان على أنه جسم فقط .. أو نفس فقط .. أو عقل فقط خال من مثيرات الروح والوجدان .. تفسير ناقص يهبط بالإنسان إلى مستوى عداد منطق وآلة حاسبة رياضية ويسلب الوجود الإنسانى نكهته وطعمه وحرارته .

إن زهرة عباد الشمس ..

حتى زهرة عباد الشمس .

تتطلع إلى الشمس ..

ونباتات الصبار .. حتى نباتات الصبار .. تخرج تصانيف جميلة كأنها منحوتة بيد نحات فنان عاكف على ابتكار أفانين الجمال ..

والنحلة .. حتى النحلة تبنى بيتها فى معمار هندسى بديع .. الطبيعة الحية ليست طبيعة جائعة جنسية ولكنها أيضاً طبيعة متفننة عاقلة متطلعة حالمة ..

والمثل العليا والأهداف والأحلام والمأمولات الراقية الرفيعة ليست أشياء انفرد بها الإنسان .. إنها فى الصميم الحى كله ..

إن غرورنا فقط كحيوانات إقطاعية امتلكت أوسع الثروات الأجهزة والحواس . . هو الذى صور لنا هذه الخرافة . .

ونحن من فيضان هذه الثروة علينا .. بدأنا نفيض بقدراتنا على البيئة حولها .. ونبث فيها نظامنا وقانوننا ونخلق منظومات وأنماطا جديدة . . فنبنى البيوت والأبراج والمدن والمصانع . . ونبتكر عمارات من الشعر والنغم والألوان . . ونخترع شرائع وقوانين ودساتير ونظما . . ونسينا فى غمرة هذا الطوفان من الثراء . . أن كل هذه النعمة هى التركة التى انحدرت إلينا من أجدادنا الحيوانات . . وأنها قبل أن تصل إلى رأسنا .. كانت فى رأس النملة . . وكانت فى لحاء الشجرة . . وكانت فى لباب الأسفنج . . وفى عصير الصبار المر . .

وهذا يعنى أن معجزة الحياة ليست فى مخلوق بعينه . . ولكنها فى النسيج الحى نفسه . . أينما كان هذا النسيج نباتاً أو حيواناً أو انساناً أو خلية تدب فى مستنقع ببطء وعماء دون أن ترى ودون أن تسمع . . فى البرتوبلازمة . .

فى هذه الجيلاتينة الهلامية كأنها ألماظية مرشوقة بالسمسم والفستق..

والذين شاهدوا البرتوبلازمة تحت الميكروسكوب يعرفون أنها تتحرك وأن حبات السمسم والفستق فيها تدور وتدور حول بندقة صلبة فى وسطها هى النواة . . وأنه أحيانا لها جدار يحفظها . . وأحيانا لا يكون لها جدار . . وإنما تكون بضعة هلامية سائبة رخوة تتلوى كبقعة زيت سميكة فى الماء . .

الواحد الصحيح

نحن لسنا اثنين ولاثلاثة .. ولا أربعة ..
نحن واحد
..

اكتشفنا أثناء هذه الرحلة من التفكير والتأمل .. أن الإنسان كائن مركب .. وأنه ليس شيئاً بسيطاً محدداً مثل الكرسى والمائدة والمحبرة وإنما هو حقيقة نامية متطورة تتقرر كل لحظة .. تتقرر من الداخل.. بإرادة حرة غير مسببة .

وانه يمكن أن يعيش على مستويات عديدة ..

يمكن أن يعيش حياة كثيفة غليظة منحطة كحياة النباتات .. كما يحدث أثناء النوم .. فيتضاءل إلى مجموعة وظائف تحدث فى آلية وتلقائية بدون وعى ..

ويمكن أن يعيش حياة ثرثارة مألوفة مبتذلة .. تقوده افكار جاهزة وعادات موروثة وتحركه تقاليد قديمة متبعة .. وتصدر أفعاله مضبوطة بمواعيد يحددها له الناس بالساعة والدقيقة .

ويمكن أن يعيش حياة عميقة يرتد فيها إلى نفسه وينقاد لأفكاره ورغباته ويحيا فى زمنه الخاص وتوقيته النفسى الصادر عن إرادته وعاطفته .. وفى هذا المستوى تكون حياته أصيلة . . وتكون أفعاله مدلولات مباشرة لشخصيته .

ويمكن أن يبلغ أعمق أعماق وجوده فى لحظة الحب .. ولحظة التأمل ولحظة الإبداع . . فينفتح شعوره على إحساس بالدوام والأبدية . . ويتذوق لحظة غريبة لازمنية .. لا شخصية.. لحظة عميقة . . تذوى كل اللحظات وتنتهى كل الأيام وتنصرم السنين.. وتبقى تلك اللحظة شاخصة فى ذاكرته عالقة بوجدانه . .

هذا الشعور يدل على أن الإنسان مفتوح من الداخل على وجود من نوع آخر غير الوجود الخارجى الجامد المحدود الزمنى الآلى الذى يرسف فى الحتمية والقوانين . . وجود حر يتدفق فى لا مكان ولا زمان ويصدر عن لا أسباب ..وجود تقويمه فيه ..وأسبابه فيه .. وجود تصدر عنه الإرادة والشخصية والسلوك والفعل . . ويبدو العالم الواقعى جزءاً منه وناتجا من نتائجه . .

وجود عميق مثل النبع الخفى تضرب فيه جذور الإنسان وأعصابه وتستق منه وجودها وإحساسها بالحقيقة .. وإحساسها بالاستمرار فى دوامة الواقع المتقلب المتغير . . وتستمد منه الشعور بأرض ثابتة وسط هذه الظواهر المفككة التى تبرق وتختفى . . وتستمد منه الثقة بأن هناك أمان . . وسكينة وطمأنينة . .

وجود أبدى تبدو فيه الحياة الزمنية حقيقة لمجرد أنها مستمدة منه منتمية إليه .

والنفس لائذة على الدوام بهذا الوجود الداخلى . لاجئة إليه . . من القلق وخراب الأعصاب الذى يحدثه الواقع المادى بتقلباته وتغيراته .

وهذا هو وجود الـ أنا المطلق . . أو الأبدية . . أو الحقيقة . . أو الروح . .

ولا أقصد الروح بمعنى الروح الشخصية .. فهذا الوجود غير شخصى .. وهو أعمق من أن يكون شخصياً .. وأعمق من أن يكون متعينا محدداً .

إن الواقع المتعين المقسم إلى فصائل وأنواع وأفراد وأشخاص . . هو واقع الزمان والمكان . . واقع الظواهر فقط . . أما الوجود الداخلى فهو وجود جوهرى لا يقبل القسمة ولا يقبل التعدد .. إنه حقيقة كل هذه الظواهر وينبوعها .

والحقيقة بسيطة وواحدة وكل ما نشاهده حولنا من تعدد وتباين واختلاف غير حقيقى وظاهرى ومؤقت . . بدليل أنه يمت إلى بعضه .. وينتمى إلى بعضه . . ويختفى تحت تعدده الظاهر . . وحدة أصيلة ينبع منها ..

وقد اكتشفنا أثناء هذه الرحلة الفكرية أن كل المخلوقات هى مجرد تصانيف وتواليف مختلفة من مادة واحدة هى البروتوبلازم .. ووحدات دقيقة متراصة هى الخلايا . .

وحتى صنوف المادة الميتة هى الأخرى تواليف مختلفة من مفردات بسيطة هى الألكترونات والبروتونات وهى شحنات سالبة وموجبة

من الطاقة .. مرة تبدو هذه الطاقة فى شكل حرارة . . ومرة فى شكل ضوء . . ومرة فى شكل كهرباء . . ومرة فى شكل مجال مغناطيسى . . ومرة فى شكل حركة .. ومرة فى شكل حياة .

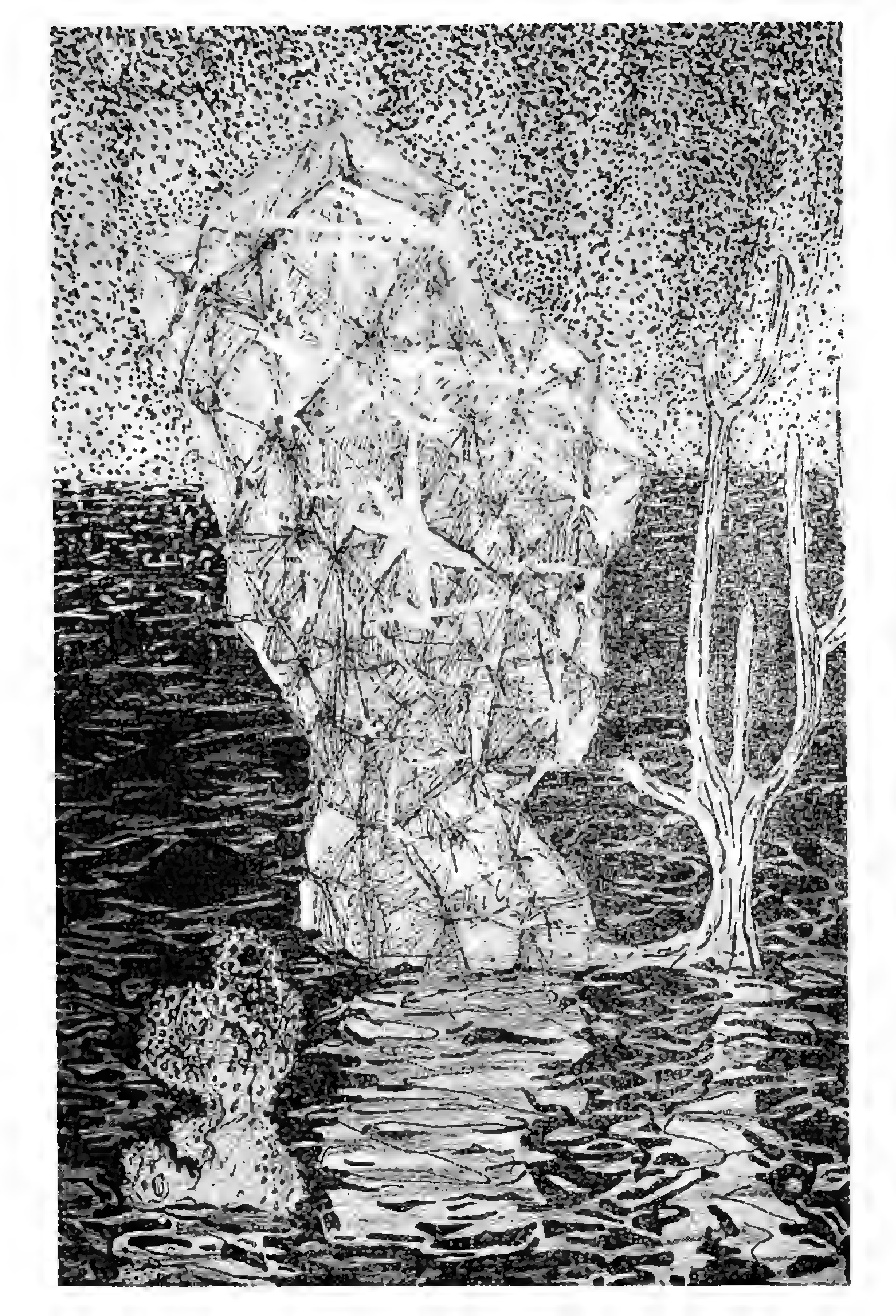
والعناصر المختلفة من رصاص وصوديوم وحديد ونحاس وكبريت ما هى إلا تواليف مختلفة من هذه الالكترونات والبروتونات.. وفى الإمكان تحويل عنصر إلى آخر بتغيير توليفته الذرية .

أن كل التباين والمفارقة والاختلاف بين الموجودات هو اختلاف شكلى ظاهرى قابل للاختزال فى النهاية إلى أصل بسيط واحد مشترك .

إن فى باطن هذا الكون حقيقة واحدة بسيطة . . روح واحدة .. جوهر واحد . . جذر نبت منه كل فرع من فروع هذه الشجرة . . وكل فرع حقيق بقدر ما يفصح عن أصله . . وبقدر ما يحمل طابع وراثته فى خلاياه وأزهاره .

حتى الكواكب والنجوم والشهب والمذنبات . ما هى إلا تصانيف مختلفة من المادة نشأت من سحب من الذرات والغبار كانت سابحة فى الفضاء .

الوجود منتجات لانهائية .. وصور لا نهائية من روح واحدة . وحقيقة واحدة بسيطة أزلية أبدية محتواها غنى لا نهائى . . يتخلق فى قوالب لاحصر لها . . وتعدد المخلوقات والموجودات هو الدال على هذا الثراء والغنى اللانهائى .



والتعدد هو تعدد فى الواقع وفى الظاهر وفى الشكل فقط وليس تعدداً فى المضمون والجوهر والروح . .

الروح واحدة . . لا تتعدد . . وإنما الأشخاص هم الذين يتعددون . . كل شخص هو بذاته توليفة فريدة من هذه الروح المطلقة . . وهو حقيقى بقدر ما يفصح عن هذه الروح وبقدر ما يدل عليها . . ولكنه فان فى النهاية . .

وكل متعين فان . . وكل متعدد فان . .

أما الروح الخالدة فهى غير متعينة . . غير محددة غير مشخصة . . ولا يمكن أن يقال عنها روح فلان . . لأنها لا تتصف بالصفة الفلانية . . إنها أصل كل الصفات . . وينبوع كل الصفات . . ومانحة لكل الصفات ولكنها لا تقبل أن تعين بصفة . . وتتحدد بشكل وترتسم بصورة . .

كل الصور المتعينة والأشكال المحددة والصفات المتباينة هى الجانب الفانى من الوجود .

الروح الباقية ليست روحاً لأحد . . أنها روح الوجود كله وحقيقته كله .

وسر الإحساس بالخلود هو هذه الحقيقة الروحية الباطنة المالئة للوجود . . وكل واحد منا هو بذاته فان مقضى عليه بالموت ولكنه يشعر بخلوده لأنه إحدى انبعاثات هذه الروح الخالدة . شمس الروح تتلألأ على سطحه كما تتلألأ الشمس فوق مستنقع ماء . . ولكنه سوف يجف تماماً . . وتبقى الشمس لتتلألأ فى صورة أخرى . .

* * *

إننا نموت بالفعل كما تموت الكلمات بعد أن تصدر عن الفم . . وكما تموت كرات الدم الحمراء والبيضاء بعد أن تصدر عن الجسم الحى وتجرى فى عروقه لبضعة أيام ثم تندثر . . كذلك يندثر الأشخاص وتبقى الروح الواحدة ليصدر عنها أشخاص آخرون . . وواقع آخر متجدد . . ودم آخر متجدد . . وكرات حمراء تخلف الكرات الحمر التى تموت . .

وهذه الروح الواحدة . . وهذا الـ أنا المطلق . . الذى ليس شخصاً بالذات . . ولا نفسا بعينها . . هو الذى يهمس فى داخلنا بدهشة حينما يرى الموت . . ولا يصدقه . . ولا يعبأ به . . لأنه غير ذى موضوع بالنسبة له . ونحن حينما نفزع من الموت . . نفزع على هذا الـ أنا المطلق . . على هذا الإحساس العزيز الحميم الذى يربطنا بالواقع وبأنفسنا . . ولا موجب للفزع . . لأن هذا المطلق فى منطقة أبدية لا موت فيها . . ولا تغير . . ولا تبدل . .

إن الذى يموت فينا . . هو ما يموت كل يوم . . ويتغير كل يوم . . أجسامنا . . . نفوسنا . . شخصياتنا . . كل هذا يموت . . . لأنه يموت بالفعل . . يموت بالحياة . . ويتغير . . ويتبدل . .

أما الروح . . أما المطلق . . فهو ليس شيئاً خاصا بكل منا . . ولكننا جميعا نحن والحيوان والنبات والجماد والطبيعة تعبيرات وأشكال ووجوه مختلفة لهذه الروح الواحدة . . والحقيقة الواحدة . . والجوهر الواحد .

وهذا المطلق موجود من قبلنا ومن بعدنا . . وأبدى . . وخالد . . ومستمر . . إنه البعد الخامس الذى يمسك بالأبعاد الأربعة التى قال بها أينشتين .

إنه مثل الواحد الصحيح الذى يقبل القسمة إلى أجزاء لا نهائية وبهذا تصدر عنه كل الأعداد ..

نحن مفتوحون من الداخل على هذا الواحد المطلق .. اللاشخصى .. اللامكانى . . اللازمانى . .

وبالنسبة لهذا الـ أنا المطلق . . لا معنى للموت أو الفناء أو التغير .. أو التبدل . .

إنه كنز لا نهائى . . وثروة مطلقة . . تصدر عنها أفعالنا وأشخاصنا وحياتنا . . ثم نموت . . ونشبع موتا . . ويبقى هو ليورق ويزهر .. ويطرح ثماراً أخرى . . وأشخاصا آخرين . . ليموتون بدورهم . . وتنمو مكانهم براعم أخرى . . إلى مالا نهاية . .

ولأننا مفتوحون من الداخل على هذا المطلق . . يداخلنا الوهم بأننا نحن أيضاً بأشخاصنا ونفوسنا لن نموت .. وأننا نملك أرواحا متعددة .

وهذا هو الإلتباس الطبيعى الذى نقع فيه بسبب حياتنا المزدوجة.. كجزء من كل .. وكنبضات صادرة عن روح كلية خالدة .

إننا كنبضات منفصلة يخيل لنا أن لنا كيان حقيقى مستقل خالد دائم .

إن صدورنا من الروح الخالدة وانتمائنا لهـا بحكم الأصل يوقعنا فى هذا الوهم . . ولكننا فانون . . ونحن فى حالة فناء متصل حتى ونحن على قيد الحياة .. وخيط الكينونة الذى يربط لحظاتنا ويمسك بتحركاتنا المفككة فى المكان . . هذه الوحدة المتجانسة التى تسرى فينا وتمسك بوجودنا الغير متجانس ليست من عالم الزمان ولا من عالم المكان . . وليست من العالم المشخص المتعين . . وليست منا بقدر ما نحن منها ..

وهى وحدة ليست بذاتها متعينة .. وإنما هى سياق مطلق غير متعين سياق هو جوهر وحقيقة للوجود كله .

وليس معنى هذا أنى أؤمن بالثنائية والإزدواج وبأن الوجود عبارة عن روح وجسد . . والكون عبارة عن مادة وصورة .. فالثنائية فى هذا التفكير ناتجة عن قصور الألفاظ .. ناتجة عن ضرورة الشرح التى تورطنا فى التقسيم وفى استخدام ألفاظ متقابلة لتدل على هذا التقسيم . . مثل لفظ روح .. ولفظ جسد .. ولفظ مادة .. ولفظ فكرة .

إن الثنائية هنا ليست ثنائية حدين .. وإنما هى ثنائية حد يحتوى على الآخر .. ثنائية كل يحتوى على الجزء .

ثنائية واحد صحيح يقبل القسمة إلى مالا نهاية من الأجزاء .

إنها فى حقيقتها واحدية انقسمت بحكم التأمل والنظر فى ظواهرها . .

فأنا لا أؤمن بالثنائية التى تقسم العالم إلى ذات موضوع . . ومادة وصورة . . ونفس وجسد . . وأعتقد أن هذا التقسيم من قبيل تشريح جسم حى . . وإنه تحليل للايضاح فقط . . ولكنه تحليل خاطىء إذا كان المقصود به الاستدلال على حقيقة مزدوجة . . لأن الجسم الحى يستحيل تحت هذا المشرط العقلى إلى جثة .

إن كل أشكال الوجود تمت إلى بعضها بصلة القرابة الوثيقة . . هناك صلة رحم تجمعها جميعاً فى أصل واحد .

وعملية التبادل التى تحدث بين صنوف الموجودات فى كل لحظة تكشف عن هذه الصلة العائلية بينها ..

النباتات تأخذ من الأرض أملاح الفوسفات والنترات وتأخذ من الهواء مركبات الكربون وبخار الماء .. ثم تحول هذه المواد المعدنية الميتة إلى أنسجة حية خضراء مثل أنسجتها .

والحيوان يأكل أنسجة النبات ويحولها إلى لحم ودم وعظم وعضلات ثم هو فى النهاية يموت ويتعفن ويتحول إلى تراب وأملاح معدنية ترتد للأرض الأم .

هذه الحلقة الدائرة تكشف عن سياق واحد لكل هذه الأشكال المتعددة .

وبالرغم من الخلاف الهائل فى المرتبة الحيوانية بين النمر المتوحش المفترس ، وبين الإنسان الرقيق الوديع العاقل .. فإن النظرة التى يتبادلها الإثنان فى حلقة السرك .. نظرة مروض الوحوش إلى الوحوش وهى راكعة عند قدميه .. تكشف عن ذلك الشىء المشترك الذى يجمع الإثنين فى رابطة خفية من الود والتعاطف المشترك ..

بالرغم من كل الوحشية التى فى النمر .. وكل الوداعة التى فى الإنسان .. يلتقى الاثنان فى لحظه تعاطف وحنان .. وكأنهما تعارفا منذ الأزل

وهكذا من خلف كل العيون تطل روح واحدة .

* * *

الواحد الصحيح مختفى وراء التعدد .. والشبه الأصيل مختفى وراء الاختلاف .. والارتباط الحميم مختفى وراء التفكك الظاهر .

والوجود كله أنشودة طويلة من ملايين الكلمات تفصح عن جمال روح خالدة واحدة .. وعن معناها اللانهائى .. وثرائها الممتلىء أبداً بالإمكانيات .

والموت معناه أن هذه الروح تقول لنا :

وعندى المزيد .. وعندى إمكانيات أخرى لا تنفذ .. انظروا .. ها كم شيئاً آخر تماماً .. هاكم مفاجأة أخرى .. ها كم مولد طفل جديد .

لوحة الغلاف وجميع لوحات الكتاب بريشة الفنان رجائى

كتب أخرى للمؤلف

أكل عيش

قطعة السكر

المستحيل

الله والإنسان

إبليس

اعترفوا لى

دار الجيل للطباعة
١٤ شارع قصر اللؤلؤة - الفجالة



ص
١٥

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة بالفجالة